

**من بدائع الأدب الإسلامي**

**دراسة نقدية لنصوص من الخطابة والقصة والشعر**

الدكتور

**محمد بن سعد الدبل**

أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

**الطبعة الثانية**

1431هـ - 2010م

**الفصل الأول**

**نصوص من الأدب الإسلامي**

**في الخطابة الإسلامية**

**والرسائل**

**والوصايا**

**والعهود**

إذا ذكرت كلمة (الفن) أو ألقيت على الأسماع عبارة (الفن الأدبي أو الفنون الأدبية) انصرف الذهن إلى ألوان الأدب شعراً ونثرا من قصيدة أو أنشودة أو مقطوعة أو ملحمة ومن خطبة إلى قصة وأقصوصة وخاطرة ومقالة ومسرحية إلى غير ذلك مما يؤديه فن العبارة كالأسطورة واللغز والأحجية والذي يسبق هذه الألوان في ميدان الأدب والنقد هو معرفة القيم الفنية التي بها يقوم العمل الأدبي أيا كان نوعه.

ولعل أقرب المقاييس الفنية التي يوزن بها اللون الأدبي هو مقياس (الصنعة).

فلقد درس النقاد القدماء صناع الأدب من خلال البناء اللفظي والمعنوي وقامت على تلك النظرة النقدية دراسات وسعت خصائص الألفاظ والتراكيب وخصائص المعاني للنص الأدبي، وما يتبع هذه الخصائص من جزئيات تقاس بمعيار الذوق والنظرة الشاملة.

فهذا أبو عمر الجاحظ يقرر الصنعة في الأدب ويرى أنها مهنة الأديب المطبوع شاعرا كان أو ناثرا، وفي ذلك يقول:"الأدب جنس من الصناعة وضرب من التصوير" ويسمى أبو هلال العسكري كتابه في نقد الأدب" بالصناعتين يعنى الشعر والنثر، ويدرس عبدالقاهر الجرجاني القيم الفنية لألفاظ ومعاني الأدب حتى يبلغ الشوط إلى مداه فيقرر مزية النص في النظم لا في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده.

ويدرس ابن سنان الخفاجي خصائص اللفظة المفردة فيوصلها إلى ثمانية أوصاف.

ويبني ابن الأثير كتابه "المثل السائر على مقدمتين: أولاهما في الصناعة اللفظية، وثانيتهما في الصناعة المعنوية([[1]](#footnote-1)).

وقبل أن ندرس – بالتفصيل – فنون الأدب الإسلامي من خطبة وقصة وشعر يحسن أن نسوق بعض الشواهد من النصوص الإسلامية لنقف على شيء من خصائصها.

إليك من كلام العرب ما يقرع الخصم، ويقطع الحجة، ويثبت العقل، ويستثير الحماس، ويمتع العواطف، ويلهب المشاعر، ويفيض بسحر البيان وأسر الجنان.

قال الخليفة المعتصم في كتاب له إلى عبدالله بن طاهر، وكانت في نفس المعتصم عليه حزازة.

أما بعد: عافانا الله وإياك قد كانت في قلبي منك هنات غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك. فإن أتاك ألف كتاب مني أستقدمك في كل واحد فلا تقدم. وحسبك معرفة بما أنا منطو لك عليه.. إطلاعي إياك على ما في ضميري منك والسلام.

وطلب الحجاج إلى المهلب بن أبي صفرة أن اكتب لي عن خبر الوقيعة في خراسان، واشرح لي القصة كأني أشاهدها. وعن خبر بني المهلب وأيهم أشجع.. فأرسل المهلب إلى الحجاج كعبا بن معدان الأشعري فجاء من كلامه: أما بنو المهلب: فالمغيرة سيدهم وكفاك بيزيد فارسا وما لقي الأبطال مثل حبيب، وما يستحي شجاع أن يفر من مدرك، وعبدالملك موت زعاف وسم ناقع، وحسبك بالمفضل في النجدة، واستجهز قبيصة، ومحمد ليث غاب. فقال الحجاج: ما أراك فضلت منهم واحداً عليهم. فأيهم أشجع من أخيه، قال كعب: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها. قال الحجاج: فأخبرني عن رضا الجند على المهلب، ورضا المهلب على الجند.

قال كعب: أعز الله الأمير للمهلب على جنده شفقة الوالد ولهم به بر الوالد.

وبعد فهذا غيض من فيض من كلام السادة والقادة فكيف بكلام أرباب اللسن والفصاحة وعلماء البيان وصناع الكلام وبخاصة من كان من فن الشعر فهو أقدر على التصوير.

إليك هذه المذهبة العينية لشاعر الإسلام الصحابي المجاهد كعب بن مالك الأنصاري، أبيات جديرة بالدراسة والنظرة الفاحصة إنها قصيدة لشاعر أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما له من مواقف تشهد بصدق إيمانه، ورسوخ العقيدة في نفسه هذه القصيدة نظمها كعب في الرد على عبدالله ابن الزبعرى. اشتملت وحدتها العضوية على صور أدبية فنية صاغها – كعب رضي الله عنه – بريشة الشاعر المبدع فجاءت قصيدته خطابا للعقل والعاطفة متسمة بالواقعية والتاريخ والصدق الشعوري وهذه الخصائص مجتمعة تؤكد ثبوت الشعر الإسلامي وقوته وتفاعله وأثره وتأثيره وإن ما يراه بعض النقاد قدماء ومعاصرين من أن الشعر الذي نظمه شعراء الإسلام من الرعيل الأول فقد بعض السمات الفنية من توهج العواطف، والإبداع في الصور، وسعة الخيال، وتميز بخصائص أخرى كفتور العاطفة، ونضوب الصورة، وضيق الخيال، والحكم العدل فيما ذهب إليه هؤلاء النقاد أن نطل على شيء من قصيدة كعب فهي البرهان على خلاف ما يرمي إليه هؤلاء.

يقول رضي الله عنه وأرضاه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا هل أتى غسان عنا ودونهم صحار وأعلام كان قتامها مجا لدنا عن ديننا كل فخمة ولكن ببدر سائلوا من لقيتم وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها إذا جاء منا راكب كان قوله نجالد لا تبقى علينا قبيلة وقال رسول الله لما بدوا لنا فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى ضربناهم حتى تركنا سراتهم ونحن أناس لا نرى القتل سبة بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله |  | من الأرض خرق سيره متنعنع من البعد نقع هامد متقطع مذربة فيها القوانس تلمع من الناس والأنباء بالغيب تنفع سوانا لقد أجلوا بليل فاقشعوا اعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا ذروا عنكم هول المنيات وأطمعوا وليس لأمر حمه الله مدفع كأنهم بالقاع خشب مصرع على كل من يحمي الذمار ويمنع ولا نحن مما جرت الحرب نجزع([[2]](#footnote-2))  م |

إلى أخر ما قال كعب رضي الله عنه في هذه الرائعة الحماسية التي تقارب أبياتها خمسين بيتا كل بيت يعبر عن معنى سام شريف تتلاحق فيه الصور حتى كأن السامع يشاهد المعركة الإسلامية عيانا ولنقف على شيء من هذه الصور في عدد من أبيات هذه القصيدة.

في مطلع القصيدة تناول الشاعر تصوير المسافات التي قطعها الجيش الإسلامي انتصاراً لدين الإسلام ونشره والدعوة إليه.

وقد أبدع كعب في تصوير الأرض الموحشة التي قطعها الجيش المجاهد "فهي في شعره مصيدة لأقوى الجمال فلا يقدر على اجتيازها أي مسافر مهما بلغت راحلته من الصبر والتمرس على الأسفار، موحشة لا أنيس فيها ولا رفيق.

ولكن سرعان ما يرسم في تعبيره صورة أخرى لهذه الأرض الموحشة. إنها مرتع خصب للظباء الخالصة البياض ولأسراب النعام والطيور البرية، فقد جمع/ كعب في تصويره الشاعري بين نقيضين لصورة هذه الصحراء الواسعة الموحشة فهناك حياة الصمت الرهيب الذي لا يقطعه إلا دلاج في السير، وهناك الشعاب المتناثرة التي لا يسكنها راجل أو راحل.

وبجانب هذه الصورة تجد صورة الحياة تعج بالحركة الدائبة التي تمتع النظر فهناك الظباء والطيور وأعداد من حيوانات البر تسرح وتمرح وترتع في مواطن الكلأ ورياض السهل والوعر.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| به العين والآرام يمشين خلفه |  | وبيض نعام قيضه يتقلع |

وشبيه قول كعب في هذا البيت به العين والآرام يمشين خلفه بقول زهير بن أبي سلمى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بها العين والآرام يمشين خلفه |  | وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم |

ومعلوم أنه يبقى لزهير فضل السبق إلى هذه الصورة النابضة بالحياة والحركة.

يقول الدكتور/ زكريا صيام. حول الصور التي رسمها كعب في قصيدته تلك:"ولا أدري كيف تسنى لشاعر المدينة حيث الحضارة والاستقرار أن يأتي بصور بدوية. بل موغلة في البداوة والغرابة لكنه خيال الشعراء الذي لا يحد أفقه شيء"([[3]](#footnote-3)).

ويمكننا أن نأخذ من ملاحظة الدكتور/ صيام معنى قدرة الشاعر المسلم على الإبداع في التصوير على حسب ما تقع عليه حاسته، وعلى حسب ما يراه في ذهنه من مواقف ومشاهد.

فكعب في هذه القصيدة يقوى لفظه في رسم الصورة التي تتطلب منزع القوة كهول الصحراء وسعتها ووحشتها. وحين ترتبط شعوره بمشاهد الحضارة واللين نراه سهل اللفظ وواضح المعنى. حتى لكأن القارئ يحس أن مطلع القصيدة لون خاص بعيد عن وسطها وأخرها فهل تحس بصلابة أو غرابة أو وحشية.

في قوله من هذه القصيدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وفينا رسول الله نتبع أمره نشاوره فيها نريد وكلنا وقال رسول الله لما بدوا لنا وكونوا كمن يشري الحياة تقربا |  | إذا قال فينا القول لا نتطلع إذا ما دعا – حتما – نطيع ونسمع |
|  | ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا إلى ملك يحيا لديه ويرجع |
|  |

فتأمل هل تجد في هذه الأبيات من قصيدة كعب لفظا غريبا، أو حرفا متنافرا، أو معنى غامضا.

إن هذه الأبيات جميعها تدل – في إطارها ومضمونها – على سعة قاموس لغة الشاعر، وخصوصا شاعرا مثل كعب بن زهير ذلك الصحابي الذي تخرج في مدرسة المسلمين، مدرسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مدرسة الرعيل الأول من المسلمين، ومن حذا حذوهم من أدباء ومفكري الإسلام إلى اليوم.

إن هذه الخصائص، التي تجمع بين سهولة اللفظ وعذوبته، وفخامته وقوته وبين وضوح المعنى وعمقه، خصائص تصدق على الشعر الذي نبت وأينع في رياض الفكر الإسلامي.

وقامت عليه دراسات أدبية ونقدية قديمة وحديثة أولئك الأدباء، فكر أدبي زخرت به أمهات المصادر من مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والبيان والتبيين للجاحظ، والعقد الفريد لابن عبد ربه، ويتيمة الدهر للثعالبي وزهر الآداب للحصري والمثل السائر لابن الأثير، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، والطراز للعلوي. وكان ذلك الشعر قبلة النحاة في شواهدهم، ومحط أنظار البلغاء في كلامهم والبلاغيين في بحوثهم، واللغويين في أثارهم. والنقاد في آرائهم.

وإذا كان الاستدلال يغري بذكر الكثير من عطاء أولئك الأدباء فهذه عبارات من جيد المنظوم والمنثور من كلام العرب أوردها الحصري في كتابه:"زهر الآداب وثمر الألباب".

قال أبو إسحاق:

أهدى الكندي إلى بعض إخوانه سيفا صقيلا فكتب إليه:

((الحمد لله الذي خصك بمنافع كمنافع ما أهديت، وجعلك تهتز للمكارم اهتزاز الصارم وتمضى في الأمور مضاء حدة المأثور، وتصون عرضك بالأرفاد، كما تصان السيوف بالأغماد، ويطرد ماء الحياة في صفحات خدك المشوف كما يشف الرونق في صفائح السيوف، وتصقل شرفك بالعطيات كما تصقل متون المشرفيات"([[4]](#footnote-4)).

هذه العبارات التي ساقها أبو إسحاق الحصري من كلام أحد الأدباء. تتميز بخصائص فنية ثلاث:

أولها: تراوح الفقرات بين الطول والقصر وثانيها اعتماد هذا الكتاب على أسلوب السجع الذي تبدو عليه مسحة من تكلف وثالثها أن طوع هذا الكاتب مباني كلماته لمعاني الغرض الذي يقصد إليه، وهذا من الخصائص الفنية التي يكاد كلام العرب أن لا يحيد عنها في أغلب الظروف والأحوال. وثمة خصوصية أخرى تميز بها كلام ذلك الأديب: إنها أسلوب الحقيقة. وهذا يعني أن الصور الأدبية تكتسب رواءها من أسلوب الحقيقة بقدر ما تكتسبها من أسلوب المجاز، ويعود تحقق هذه الخصوصية إلى قدرة الأديب على تطويع كلماته وفق معانيها.

فانظر إلى ما جرى من وفد الشام بين يدي المنصور، واستمع إلى كلام الحارث بن عبدالرحمن الغفاري أحد الوافدين. فلسوف يتبين لك قدرة الأديب على تخير الكلمات لما يمكن أن تحمله من معنى. يقول الحارث:((يا أمير المؤمنين: إنا لسنا وفد مباهاة، ولكنا وفد توبة استخفت حليمنا، فنحن بما قدمنا معترفون، وبما سلف منا معتذرون، فإن تعاقبنا فبها أجرمنا، وإن تهف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء: قال أبو إسحاق: فقال له المنصور: أنت خطيب القوم ورد عليه ضياعه بالغوطة))([[5]](#footnote-5)).

هذه العبارات – شفعت لصاحبها ولمستمعيها من وفد الشام. شفعت لهم عند السلطان بطيب ألفاظها وتوفيق معانيها، وسحر بيانها، الذي أخذ بمجامع القلوب، فصار إلى قبول توبة التائبين أنصف في حق المعتذرين.

((قال أبو إسحاق: ومن المواقف التي أنصفت صاحبها موقف تميم ابن جميل عند الخليفة المعتصم، حدث أن قام تميم بن جميل بشاطئ الفرات واجتمع إليه كثير من الأعراب فعظم أمره، وبعد ذكره، فكتب إلى المعتصم إلى مالك بن طوق في النهوض إليه، فتبدد جمعه، وظفر به موثقا إلى المعتصم. فقال أحد رجال الخليفة: ما رأيت رجلا عاين الموت فما هاله ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله مثل تميم بن جميل، فإنه لما مثل بين يدي المعتصم وأحضر السيف والنطع ووقف بينهما تأمله المعتصم – وكان جميلا وسيما – فأحب أن يعلم أين لسانه من منظره، فقال له: تكلم يا تميم. فقال تميم للخليفة: أما إذ أذنت يا أمير المؤمنين فأنا أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولمَّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبل الحق، وأخمد بك فتنة الباطل إن الذنوب تخرس الألسن الفصيحة، وتثقل الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، فلم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما مني وأسرعهما إلي أشبههما بك وأولاهما بكرمك ثم أنشد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أرى الموت بين السيف والنطع كامنا وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرئ يأتي بعذر وحجة وما جزعي من أن أموت وإنني ولكن خلفي صبية قد تركتهم كأني أرهم حين أنعى إليهم فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة يعز على الأوس بن خزرج موقف وكم قائل لا يبعد الله روحه |  | يلاحظني من حيثما أتلفت وأي امرئ مما قضى الله يفلت وسيف المنايا بين عينيه مصلت لأعلم أن الموت شيء مؤقت وأكبادهم من حسرة تتفتت وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا أذود الردى عنهم وإن مت موتوا يسل عليّ السيف فيه وأسكت وأخر جذلان يسر ويشمت |
|  |
|  |

قال أبو إسحاق: فتبسم المعتصم، وقال: يا جميل، قد وهبتك للصبية وغفرت لك الصبوة، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه وعقد له على شاطئ الفرات([[6]](#footnote-6)).

ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن أهم فنون الأدب الإسلامي منذ عهد النبوة وما وليه من عصور الأدب إلى عصر النهضة الحديثة، لا يتجاوز الكلام المنثور والمنظوم في إطار ألوان أدبية معينة من خطبة، ووصية، وعهد، وميثاق، ورسالة، وقصة، وتوقيعات، وشعر.

أما المسرحية فلون شاع وكثر في العصر الحديث، والقصة ويتبع المسرحية ألوان أخرى كالأقصوصة والخاطرة والأسطورة والمقالة، والقصة القصيرة.

ولم تعرف هذه الألوان الأخيرة وبخاصة فن المسرحية في حياة العرب الأدبية، ولم تنشأ أثناء نقلتهم الإسلامية إلا في العصر الحديث، غير أن القصة بمفهومها الأدبي وفوارقها الفنية التي تميزها عن الخطابة كانت من أهم فنون الأدب بعامة، والأدب الإسلامي بخاصة ويكفي – دليلا – على ذلك اشتمال الأدب النبوي على طائفة من القصص مما سنتحدث عنه بالتفصيل في موضع أخر من هذه الدراسة.

وإذا كانت الخطابة والقصة، والشعر هي أرحب ميدان لاستيعاب أغراض الأدب الإسلامي وموضوعاته فسنقصر الدراسة على هذه الألوان الثلاثة مبتدئين بفن الخطابة فهي من أخطر فنون الأدب الإسلامي في حياة المسلمين منذ فجر الدعوة الإسلامية على يد محمد ، وإلى اليوم، مشيرين – باختصار شديد – إلى بعض الألوان الأدبية الأخرى: كالرسائل والوصايا والعهود.

وإذا كانت الخطابة العربية أسبق في الظهور من الشعر جاهلية وإسلاما فما أهم وبلاغتها، وما الخصائص الفنية التي تميزت بها في ألفاظها وجملها وتراكيبها ومعانيها وبلاغتها، وما قيمتها الفنية في معايير النقد الأدبي؟ ذلك ما سندرسه في الصفحات التالية، وقبل أن نتحدث عن هذه القضايا يحسن أن نلم بشيء عن تاريخ الخطابة عند العرب قبل الإسلام، وما كان لهذا الفن من أثر في حياتهم الاجتماعية والأدبية.

كانت الدوافع والأغراض لفن الخطابة عند الجاهليين تكاد لا تتجاوز الموضوعات التالية:((النعرة والحمية الجاهلية، وشن الغارة مدافعة عن النفس والمال والعرض، أو للتحريض على السطو والسلب. ومن أهم موضوعاتها عندهم: المفاخرة بالشعر والنسب والحسب، وقوة العصبية إلى جانب عدد من الخصال الحميدة: كالشجاعة والكرم والنجدة والإيثار وحماية الجار وإباء الضيم))([[7]](#footnote-7)). وقد سارت الخطابة عند العرب في جاهليتهم سير الشعر في كثير من الأغراض والموضوعات، غير أن عنايتهم في أول الأمر كانت خاصة بالشعر دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر وسهولة حفظ المنظوم ولأن الخطابة فن قضت به طبيعة حياتهم المعيشية، ودعت إليه حالتهم الاجتماعية فتفتقت بها ألسنتهم صيانة لعزها، وحفظا لمجدها، وتخليدا لمآثرها، وتأييدا لمفاخرها([[8]](#footnote-8)).

وعلى الرغم من قدم عنايتهم بالشعر دون الخطابة فإنه قد نزل مستوى الشعر عندهم وعلا شأن الخطابة لما اتجه الشعراء إلى موضوعات تقلل من قيمتهم حيث استعملوا الشعر في ثلب الأنساب والطعن في الحرمات، وهتك الأعراض وإثارة الضغائن، واتخذوه وسيلة للعيش والتكسب.

من أجل ذلك اتجه الخطباء بخطبهم في ذلك العصر إلى موضوعات ذات قيم إنسانية رفيعة بخلاف ما كان عليه الشعر، فاستعملت الخطابة في تكريم الأشراف وتأبين العظماء، والصلح بين الفريقين.

ومن أهم الخصائص الفنية للخطب الجاهلية شدة الأسر وفخامة اللفظ، وإحكام الصنعة. المحافظة على أصالة اللغة، والتراوح بين الطول والقصر على حسب المقامات التي تساق فيها الخطبة وليس المقام هنا مقام تفصيل لدراسة الخطابة الجاهلية إذا الدراسة خاصة بموضوعات الأدب الإسلامي الذي من أصوله جيد المنظوم والمنثور من كلام العرب.

غير أن هناك تشابها في موضوعات الخطابة عند العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم منذ فجر الدعوة الإسلامية وإلى اليوم، فهناك من الموضوعات التي جمعت بين القيم الإنسانية والقيم التعبيرية والإرشاد. ي العصرين الجاهلي والإسلامي ما يلي:

\* خطب الوفود.

\* خطب الاستخلاف والولاية.

\* خطب الحرب.

\* خطب الزواج.

\* خطب المناظرة.

\* الخطب الاجتماعية.

وكان مما اختص الإسلام به من هذه الخطب:

\* خطب الفتوح.

\* خطب الزواج.

\* خطب الوعظ والإرشاد.

\* الخطب السياسية.

\* الخطب العلمية.

وكانت موضوعات هذه الخطب عند العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم ذات تشابه تام في الخصائص الأسلوبية.

فمن أبرز الخصائص الفنية في هذا اللون من ألوان الأدب وبخاصة الأدب الإسلامي أسلوب الإقناع بالدليل والحجة الواضحة والموعظة الحسنة مع الوضوح الذي يكشف عن قصد الخطيب في غير تعمية ولا تضليل، وأن تكون الخطبة من أقرب الطرق مجازا، وأبينها جوازا وسبيل الوضوح هو التعبير في سهولة وفي غير مغالطة ولا تعقيد.

وأن يتجنب الخطيب التكلف في سوق الأفكار فيتحاشا التوعر في اختيار الألفاظ([[9]](#footnote-9))، فمثل هذه الخصائص تسلم الخطيب إلى الإغراب الذي لا يصل به المعنى إلى ذهن السامع إلا بكد القرائح والفطر إمعاناً في فهم المعنى المراد، وحول هذه الخصوصية يقول أبو هلال العسكري:(إذا جمع الكلام العذوبة، والجزالة والسهولة والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف، وبعد عن سماجة التركيب قبله الفهم الثاقب ولم يرده، والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغى إلى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخم، ويتأخر عن الجافي الغليظ، وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد، ويستفحصونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة، وجاسيه غريبة ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا وسهلا حلوا، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا وأعز مطلبا([[10]](#footnote-10))، إن تحقق هذه الخصائص مجتمعة تغرى بالمضي في الحديث عن الخطابة الإسلامية ذلك اللون الذي سبق الشعر في الظهور والتأثير، وكان من أجمل فنون الأدب الإسلامي.

ولا أرى ما يدعو إلى دراسة تاريخ هذا اللون في الأدب فإنه صاحب ظهور الدعوة الإسلامية على يد محمد وظلَّ مرافقا للعطاء الأدبي طوال نشر الدعوة الإسلامية على يد القادة الفاتحين من رعيل الصحابة والتابعين والخلفاء والولاة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ولم يزل هذا اللون يساير النهضة الأدبية الحديثة عند طائفة كبيرة من المفكرين والأدباء والمصلحين إلى اليوم.

وإذا أردنا أن نقف على خصائص هذا اللون الأدبي، وندرسه دراسة نقدية من منظور إسلامي فإن في نصوصه عبر تاريخ الأدب العربي ما يدلل على عطاء الأدبي الإسلامي ويبرهن على وجود أدب متميز ملتزم غائي نبيل هادف.

وإذا كان من أجود ما يجلى الخصائص الفنية للعمل الأدبي الوقوف على شنئ من النصوص التي خلفها الرعيل الأول من المسلمين فإن في أدب الدعوة الإسلامية من النصوص الخطابية ما ينهض بدراسة أدبية نقدية كاملة.

وإذا كان الأدباء يتفاضلون في أعمالهم الأدبية شعرا ونثرا، فإن إمام الفضل والفضيلة في الأدب الإسلامية هو رسول الأمة ونبيها محمد لأن أدبه هو ذلك الكلام الرفيع الذي لم يدرك شأوه بليغ ولا فصيح، فلنقف على شيء من كلامه الشريف ضمن كلمات ليست من بوح الخاطر، وليست في الإبداع هواجس شاعر، ولا هي من تكلف المتفاصحين، ولا من مأثور البلغاء والبلاغيين، وإنما هي عقود مشذرة تعد واسطة العقد في الكلام، وجواهره في المعاني السامية الشريفة، لصدورها عن إمام العلم والحكمة، ونبي الهدى والرحمة، ساق منها العلماء في أثارهم، واقتبس منها الأدباء في عطائهم وأوردها علماء اللغة والبيان شواهد على قواعدهم وأمثلتهم، فهي مدد فياض لا ينضب أبد الدهر.

أورد العالم الأديب يحيى بن حمزة العلوي، في كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) ما لا يمل إذا أعيد: من ذلك قول رسول الله :(لا تكونوا كمن اختدعته العاجلة، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، إنه لم يبق من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب أوصر حالب، فعلام تفرحون؟ وماذا تنتظرون؟ فكأنكم بما أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن، وبما تصيرون إليه من الآخرة لم يزل، فخذوا الأهبة للأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كل امرئ على ما قدم قادم، وعلى ما خلف نادم.

حول هذا النص النبوي الكريم يقول العلوي:

فليعمل الناظر نظره في هذا الكلام، فما أسلس ألفاظه على الألسنة، وما أوقع معانيه على الأفئدة وما احتوى عليه من التنبيه البالغ، والوعظ الزاجر، والنصيحة النافعة، فقد صدره بالتحذير أولا عما يعرض من مصائب الدنيا من الانخداع والغرور، والاستهواء، وعقبه – ثانيا – بالتحذير عن الركون إلى الدنيا، ونبه بألطف عبارة وأوجزها على زوالها وانقطاعها، وأردفه – ثالثا – بالحث على عمل الآخرة وأخذ الأهبة للزاد، ثم ختمه بتحقيق الحال في الإقدام على ما فعله الإنسان من خير وشر، وأنه نادم - لا محالة – على ما خلفه من الدنيا وأنه غير نافع ولا مجد.

ومن محاسن هذا الكلام الذي كله درر: اشتماله على أنواع أربعة من فنون البديع، أولها السجع في قوله : العاجلة والأمنية والخدعة، والزوال والانتقال، وثانيها:(التجنيس) في قوله كإناخة راكب أوصر حالب، وثالثها (الاشتقاق) في قوله : كل امرئ على ما قدم قادم، وهذا من بلاغة القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى:{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ}([[11]](#footnote-11)) ورابعها:(الائتلاف) وهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمقصود فحيث كان المعنى فخما فاللفظ يكون جزلا كقوله :(لا تكونوا كمن اختدعته العاجلة وغرته الأمنية واستهوته الخدعة).

وإن كان المعنى رشيقا اللفظ سهلا رقيقا كقوله : فكأنكم بما قد أصبحتم فيه من الدنيا لم يكن، وبما تصيرون إليه من الأجرة لم يزل قال العلوي: وهذه فرائد من كلامه بما يتعلق بالقدرة والآداب: يقول من لا ينطق عن الهوى: من عرف نفسه عرف ربه، ما هلك امرؤ عرف قدره، رُب حامل فقيه غير فقيه، رُب مبلغ أدعى من سامع، رُب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد، الطمع فقر واليأس عناء، إنه من خاف البيات أدلج في المسير وصل كرم الكتاب ختمه، الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

قال العلوي: فلينظر المتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلم القصيرة من المعاني الجمة، والنكت العديدة، مع نهاية البلاغ ووقع هذه الدرر في الفصاحة أحسن موقع)([[12]](#footnote-12)).

ونضيف على ما ذكره العلوي فنقول: هذه الخصائص التي اشتمل عليها هذا الكلام النبوي إنما هي خصائص تتعلق بالإطار، فما الخصائص التي تتسم بها المعاني؟ إن أول ما يطالعك من خصائص هذه الدرر في معانيها: اشتمالها على المعنى الكثير باللفظ القليل، مع بعد الغاية في المقصد وشرف المعنى وسموه ووضوحه وسلامته من التعمية الألغاز والغموض والتعقيد مع ما يتصف به في لفظه ومعناه من جزالة وفخامة، ومن رقة وعذوبة وهذه الخصائص مجتمعة قد لا تتحقق لمتكلم ما فكأنما هذا مما خص به كلام رسول الله ولنا عود إلى الحديث عن كلام رسول الهدي .

فلننتقل إلى شيء مما ذكره العلوي من كلام الصحابة الأجلاء وليكن ذلك مما أورده من كلام الإمام علي كرم الله وجهه، يقول العلوي: قال أمير المؤمنين علي بن أبى طالب كرم الله وجهه: نحن أمراء الكلام، وفينا تشبثت عروقه وعلينا تهدلت أغصانه قال العلوي:ومن كلامه – كرم الله وجهه – في معنى بدء الخليقة : فطر الله الخلائق بقدرته، ودبرها بحكمته ونشر الرياح برحمته ووتد بالصخور ميدان أرضه، ثم قال: أول الدين معرفته، وكمال معرفته توحيده وكمال توحيده التصديق به، وكمال التصديق به الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي صفات النقائص عنه.

ومن النوادر في الحكم والآداب قوله رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسن فهذه اللفظة: لا يوازيها حكمة، ولا تقوم أمامها جملة، وقوله: المرء مخبوء تحت لسانه، والسعيد من وعظ بغيره، والمغبوط من سلم له دينه مصارع العقول تحت بروق الأطماع، بالبر يستعبد الحر، الطمع رق مؤبد، التفريط ثمرته الندامة([[13]](#footnote-13)).

وعن الخصائص الفنية لهذه الكلمات يقول العلوي فلنورد من كلامه أمثلة ثلاثة على مثال ما أوردناه من السنة النبوية، والقرآن الكريم، لأن كلامه عليه مسحة وطلاوة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة ونفحة من الكلام النبوي ولقد أتى في توحيد الله تعالى وتنزيهه عن مشابهة الممكنات وبعده عن مماثلة المكونات، بكلام ما سبقه إليه سابق، ولا أتى بما يدانيه من تأخر بعده من تابع ولا لاحق.

من عرف كلام البلغاء في خطبهم ومواعظهم بعده كرم الله وجهه إلى يومنا هذا غير كلام الله تعالى وكلام رسوله علم قطعا لا شك فيه، أنهم قد أسفوا في البلاغة،، وقصروا في الفصاحة وسبق والعجيب من علما أعرفكم. والجماهير من حذاق المعنى حيث توغلوا في أودية البلاغة، وأعرضوا عن كلامه مع علمهم بأن الغاية التي لا رتبة فوقها ومنتهى كل مطلب، وغاية كل مقصد في جميع ما يطلبونه من الاستعارة والتمثيل والكناية، وغير ذلك من المجازات الرشيقة والمعاني اللطيفة الدقيقة([[14]](#footnote-14)).

ويؤيد توافر هذه الخصائص في النصوص ما أورده الجاحظ من الخطب لعلي ولغيره من خطباء الإسلام من ذلك خطبته – كرم الله وجهه – في الحث على الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله:

(أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، ولزمه الصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف. ألا وأنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم – قط – في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان وابن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالا صالحين، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينزع حجلها وقلبها ورعاثها. ثم انصرفوا وافرين، ما كلم رجل منهم كلما فلو أن رجلا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان عندي به ملوماً بل كان به عندي جديرا، فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا، حين صرتم هدفا يرمى وفيئا ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: حمارة القيظ. أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد، قلتم: أمهلنا ينسلخ عنا القر. كل ذا فراراً من الحر والقر. فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم – والله – من السيف أفر، يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال، وددت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم، وقبضني إلى رحمته من بينكم. والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم. معرفة والله جرّت ندما. قد وريتم صدري غيظاً. وجرعتموني الموت أنفاسا، وأفسدتم على رأيين بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: ابن أبى طالب شجاع ولكن لأعلم له بالحرب. لله أبوهم. وهل منهم أشد لها مراسا، أو أطول لهما تجربة مني؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين، فهأنذا قد نيفت على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع([[15]](#footnote-15)).

وقبل أن نتحدث عن خصائص هذه الخطبة الإسلامية هناك أمر يحسن التنبيه عليه فيما يتعلق بصحة نسبة ما دوِّن من الخطب إلى علي كرم الله وجهه. أقول في ما قيل: لقد حفظت كتب التراجم والسير وأمهات مصادر البلاغة والنقد والأدب عددا كبيرا من خطب الإمام على- كرم الله وجهه – غير أن أغلب هذه الخطب ليس من نسج كلامه، ولا من مكنون مراده وإنما هو من قبيل الكلام المصنوع المدخول عليه، وبخاصة ما كان الخطب التي بين دفتي كتاب (نهج البلاغة) فقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة 436هـ أو من عمل أخيه الشريف الرضي المتوفى سنه 406هـ.

يقول ابن خلكان في ترجمة أوردها له بكتابه (وفيات الأعيان):(قد اختلفت الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل هو جمعه أو جمع أخيه الرضي وقد قيل: إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه)([[16]](#footnote-16)) ويردد هذا الكلام اليافعي في مرآة الجنان وابن العماد في شذرات الذهب، ويؤكد الذهبي في ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذي وضعه، ويذهب مذهبه ابن حجر العسقلاني في (لسان العرب) حيث يقول:

(من طالع نهج البلاغة جزم أنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ففيه السب الصراح والحط على السيدين: أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب كله باطل وذهب النجاشي ت450هـ في كتابه (الرجال) إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضي. وما ذهب إليه النجاشي هو الصحيح بشهادة الرضي نفسه وشهادة شراح كتابه، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسمه باسمه (البلاغة) كما ذكر ذلك في كتاب ((مجازات الآثار النبوية)) ويشير ابن أبي الحديد ت655هـ. في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضي، ويذهب ابن هيثم البحراني في شرحه عليه إلى أنه من تأليف الشريف.

وعلى هذا فالكتاب من صنع الشريف الرضي، وظهر أنه ليس من عمله جميعا فقد أضاف إليه عدد كبير من أرباب الهوى خطبا كثيرة، ودليل هذه الإضافات ما ذكره المسعودي في ((مروج الذهب)) إذ يقول:((الذي حفظ الناس عن علي من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهية تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا. وكأن الشريف الرضي وجد مدة صاغ منها كتابه وهي مادة بنيت على السجع، وفي ذلك ما يدل على كذب نسبتها إلى علي إذ ليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطابته، بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع، ويتحاشاه أبو بكر وعمر وعثمان في خطبهم رضي الله عنهم.

ومعنى هذا أنه لا يصح الاعتماد على هذا الكتاب أعني ((نهج البلاغة)) في تصور خطابة علي رضي الله عنه، وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى مثل:((البيان والتبيين)) للجاحظ، فقد روى طرفا من خطبه وكلامه ومواعظه، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية إلى أن يكثر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وحثهم على القتال في سبيل مبدئهم وفكرتهم([[17]](#footnote-17)).

ونقول حول هذه القضية: إن ما ذكره شوقي ضيف نقلا عن عدد من المصادر التاريخية والعلمية بشأن نسبة كتاب ((نهج البلاغة)) إلى الإمام علي. ومدى صحة هذه النسبة من كذبها كلام موثق لا يحتمل الشك. غير أن ما علل به من حيث إن المادة العلمية في كتاب ((نهج البلاغة)) تعتمد على السجع، وعلي رضي الله عنه لا يسجع في خطابته لنهي رسول الله عن السجع، ولتحاشي أبي بكر وعمر عثمان فن السجع في كلامهم ولهذا السبب يعد الكتاب من صنع الشريف الرضي.

إن هذا التعليل تنقصه النظرة العلمية الدقيقة فنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو نهي عن السجع المتكلف الذي يعد من قبيل سجع الكهان كما قال صلى الله عليه وسلم:((أسجعا كسجع الكهان)).

فلو قال شوقي ضيف إن اعتماد المادة العلمية لكتاب ((نهج البلاغة)) على السجع المتكلف خطابته، أنه من صنع الشريف الرضي، لأنه من الطبيعي أن عليا رضي الله عنه لا يسجع في خطاباته، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السجع المتكلف وتحاشاه أبو بكر وعمر وعثمان لو قال ذلك لكان تعليله أقرب إلى الصحة والقبول لأننا نجد في كلام كثير من الخلفاء والصحابة سجعا مقبولا غير متكلف.

أما الخصائص الفنية التي اشتمل عليها نص خطبة الإمام علي رضي الله عنه في الحث على الجهاد.

فإن أول ما يطالعنا تلك الخصوصية التي هي من شأن كل خطبة إسلامية منذ أن تعلم المسلمون طرائق التعبير على يد محمد صلى الله عليه وسلم تلك الخصوصية هي بدء هذه الخطبة بحمد الله والثناء عليه الصلاة والسلام على رسوله.

ويمكن أن نستوضح الخصائص الفنية الأخرى لهذه الخطبة من خلال السمات التالية:

* حسن الافتتاح.
* تقسيم الخطاب.
* التفنن في الأسلوب.
* الختام.

أما حسن الافتتاح فيتبين من بدء الخطبة: حيث تدخل في الغرض دون مقدمات وعرض واستدلال ودليل ذلك قوله رضي الله عنه:((أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركة رغبة ألبسه الله ثوب الذل.. إلى قوله:((ومنع النصف)) فالأسلوب التعبيري في الافتتاح جاء في غاية الإحكام حيث اعتمد على الأسلوب الإخباري في جمل تتراوح بين الطول والقصر.

أما تقسيم الخطاب. فقد جاء وفق تقسيمات تتناسب مع أحوال لسامعين أولئك الذين كان يأمرهم بالجهاد ولكنهم يتباطؤون في الخروج ويعدون بالنفير في وقت غير الذي قيل لهم.

وأول هذا التقسيم قوله رضي الله عنه:

((ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً و نهاراً وسرا إعلانا)) ثم التأكيد في طلب الخروج إلى القتال من قوله:

(( وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم: والله ما غزى قوم – قط في عقر دارهم إلا ذلوا.

ثم بيان نتيجة هذا الحث والطلب من قوله:

فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريا ثم بيان ما ترتب على العصيان والتأخر عن القتال من قوله: حتى شنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل حسان وابن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالا صالحين وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينزع حجلها ورعاثها".

ثم يلتفت بأسلوب الخطاب إلى لون تعبيري أخر يحمل في ثناياه عددا من جمل التقريع واللوم حيث يقول:

((فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا حين صرتم هدفا يرمى وفيئا ينتهب ويلي هذه العبارات جمل تتسم بالقصر والسجع الحسن غير المتكلف من قوله.

((يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون)).

ثم ينتقل التقسيم في الخطاب إلى أسلوب حواري تقريعي تتوالى في ثناياه عدد من المؤكدات كصيغة الأمر والقسم الجمل الاسمية من قوله: فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: حمارة القيظ – أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم: أمهلنا ينسلخ هذا القر.. إلى قوله رضي الله عنه فأنتم والله من السيف أفر.. والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم – معرفة والله جرت ندما.

أما خصوصية التفنن في الأسلوب فتكاد تكون هذه الخطبة من نسج الحقيقة الصرفة التي لم يمازجها أسلوب خيالي من استعارة أو فن كنائي إلا ما جاء من الاستعارة في قوله ((ألبسه الله ثوب الذل فقد جعل للذل ثوبا ليكون أشمل في عقاب الله وأخذه)).

ونلحظ أنماطا من المقابلات البديعةـ في قوله: سرا وإعلانا وليلا ونهارا وباطلهم وحقكم، الحر والبرد وقد حفل إطار الخطبة هنا بألوان من الألفاظ المتخيرة المنتقاة التي تلائم الجملة والتركيب وتضفي المعنى جلالة ومهابة وروعة وبخاصة أن موضوع هذه الخطبة موضوع يتحدث عن الجهاد وعن فئة تباطأت في الخروج إليه. وقد صحب قوة ألفاظ الخطبة ووضوحها وجمالها وسلاستها وبعدها عن الغرابة عمق المعنى ووضوحه وشرفه واقتضاء المقام له. والشأن في ذلك ما قاله أبو هلال العسكري ((ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف في اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يدنسهما ويفسدهما ويهجنهما))([[18]](#footnote-18)).

وأما أسلوب الخاتمة فقد جاء ملائما لما أثير في الخطبة من معاني اللوم والتقريع والحث على الجهاد ونتائج التباطؤ في النفير وما يلزم الرعية من طاعة أولي الأمر. جاء الختام ملائما حيث انقطع صوت الغضب بجملة واحده قد لا تتجاوز خمس كلمات من قوله:((ولكن لا رأي لمن لا يطاع)).

ختام يحمل من أسلوب اللوم والتقريع ما يتناسب مع البناء الشعوري الذي نسجت خيوطه وأحكمت لبناته عاطفة صادقة حرى تتقطع أسفا وحزنا وغضبا على ركون هذه الفئة وإخلادها إلى الأرض عاجزة عن قتال عدوها.

ولا يعذب التكرار في كلام عذوبته في تكرار شيء من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين.

فلنعش مع نموذج من بدائع الخطب الإسلامية وحيث البيان الرائع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطبته في حجة الوداع. تلك الخطبة الإسلامية التي لم يزل يستقي منها البلغاء والعلماء في تثبيت معانيهم اقتباسا وتضمينا.

يقول صلوات الله وسلامه عليه:

((الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله)) أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير أما بعد، أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وأن ربا الجاهلية موضوع، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب، وأن دماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وأن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله([[19]](#footnote-19)) فيحلوا ما حرم الله تعالى، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه. بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين فاحشه مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمه الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا.. ألا هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. ألا هل بلغت اللهم اشهد.

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي.. اللهم هل بلغت اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لأدم وأدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى.. إلا هل بلغت اللهم اشهد.

* قالوا: نعم – قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته([[20]](#footnote-20)).

وبعد فما يقول الناظر في هذا النص الشريف على طوله ووجازته وتوسطه واعتدال فقره، لقد جمع بين طرفي نقيض من الإطناب غير الممل والإيجاز غير المخل، حتى طابقت ألفاظه لمعانيه ولم يسلك به مسلك صناع الكلام على الرغم من كثرة المعاني السامية الشريفة التي تخللت جزيئاته، وهذه المعاني كثيرا ما تكون بحاجة ماسة إلى كثير من زخرف القول لتأكيد هذا المعنى، نفى هذا المعنى، وتفصيل هذا المعنى واختصار هذا دون ذاك، لكنها العناية الربانية التي تمد رسول الله وتزوده بالمعارف التامة فحاشاه من زخرف القول وتكلف الصنعة فإنه لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحي يوحى، يقول ابن قيم الجوزية في سرد خصائص كلام رسول الله :((كان أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقا، وحتى أن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب ويسبي الأرواح ويشهد له بذلك أعداؤه، وكان إذا تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد ليس بهذا مسرعا لا يحفظ، ولا منقطعا تتخلله السكتات بين إفراد الكلام بل هديه فيه أكمل الهدي.

ويقول ابن قيم الجوزية في هدي خطب رسول الله كان لا يخطب خطبة إلا بدأها بحمد الله والثناء عليه، وكان يختمها بالاستغفار وكان كثيرا ما يخطب بالقرآن بل كان مدار خطبه على حمد الله تعالى والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبين موارد غضبه، ومواقع رضاه، وكان يقصر خطبته أحيانا، ويطيلها بحسب حاجة الناس، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة([[21]](#footnote-21)).

ولا شك أن كلام ابن قيم الجوزية وكلام غيره ممن سبقه وممن جاء بعده قول فصل في وصف كلام رسول الله ولا يستطيع أديب ولا متأدب أن يحصى الخصائص الفنية لجميع كلامه الشريف وحسبنا أن نتلمس تلك الخصائص التي تميز كلامه في كل لون من ألوان النصوص النبوية من حديث إلى خطبة إلى رسالة إلى وصية إلى موعظة.. خصائص تنأى بكلامه الشريف وترتفع به عن كلام المتفاصحين والبلغاء والأدباء صناع الكلام.

إن أول خصوصية في هذا النص تلك الرابطة الوثيقة بين معاني هذه الخطبة وتدرجها في أسلوب الأمر والنهى، والتحذير، وترتيب النتائج، وحسن الربط بين البدء والختام بما لا مزيد عليه.

والبناء في تركيب الجمل ضمن الألفاظ المفردة تراه يشع بالرونق والطلاوة من غير تكلف في تخير الألفاظ وانتقائها، لأن المعنى هو الذي يطلب اللفظ فلا تكلف ولا صنعة، إنما هي عبارة جزلة فخمة في موضع التفخيم لينة سهلة في موضع اللين والسهولة، تطاوع كل لفظة أختها في أداء المعنى وإقراره.

وفي ثنايا هذه الخطبة الشريفة عدد من المقابلات العجيبة، التي تحقق من خلالها ما ساعد على وضوح الفكرة، لأن استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة مما يزيد في البيان ويوضح خواصه على أن يخلو هذا اللون من الأسلوب مما يفضي به إلى الغلو حتى يعود صنعة بديعية تفسد الأسلوب([[22]](#footnote-22)).

وقد عريت هذه الخطبة الشريفة من هذه الصفات ذات الصنعة فإن أسلوب التقابل والتضاد قد جاء عفويا من غير قصد إليه.

من ذلك قوله :(من يهدي الله فلا مضل له " يحلونه عاما ويحرمونه عاما " السماوات والأرض" ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى " فليبلغ الشاهد الغائب".

إنها عبرات فنية عجيبة لم تتصيد ولم تتخير بالبحث والاستقصاء وإنما سلك بها مسلك الطبع الفطري الذي لا تكلف فيه ولا تعمل ولم يأت أي أسلوب من هذه المقابلات إلا لأنه نوع "من التحدي بين المعاني والمنافسة في ظهور الغرض وهذه قوة المعاني([[23]](#footnote-23))، وإذا تأملنا معاني هذه الخطبة ألفينا أنماطا من القيم الخلقية الإنسانية الرفيعة فهي تدعو إلى: التقوى وإلى الإخوة وإلى العدل في الحقوق الإنسانية كما يحدد ذلك ويفصح عنه قوله : أوصيكم ونفسي بتقوى الله وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، وعن تقرير مبدأ الأخوة يقول إنما المؤمنين إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، بل تقترن الأخوة بالتقوى في أسلوب هذه الخطبة، فهما جناحا النجاة حيث يقول (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب" وهذا جناح الإخوة يلتحم مباشرة مع جناح التقوى من قوله :"إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى"([[24]](#footnote-24)).

ونلحظ تدرج هذه الخطبة في عرض موضوعاتها مبتدأه من أدنى الحقوق الإنسانية القيم الخلقية إلى أعلاها، فحين تتحدث عن نصيب الإرث تنتقل إلى الحديث عن حق النسب من قوله :(أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث، ثم يقول عن حقوق النسب:(والولد للفراش وللعاهر الحجر فهنا عدل في حق اجتماعي وأخر قضائي وهذا منتهى السمو في مدارج البلاغة العربية الذي يشف عنه إلهام النبوة وقدرتها على التصرف في فنون القول" إذ لم يكن الإسلام الذي يدعو إليه محمد ويوطد دعائمه دين جمود فيقف عند المطالب الأخروية شأن ما سبقه من الأديان بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لا بد للشارع الحكيم من أن يتعرض لكل ما به تصلح أمور البشرية في العقيدة والتشريع والمعاملات، الحكم والسياسة، والاجتماع والأخلاق والفكر([[25]](#footnote-25)) إلى ما هو أدق وأخطر كمبدأ الصلة والتقارب والتحاب بين الأفراد والجماعات سواء كان هؤلاء الأفراد والجماعات من ذوى القربى أو من غيرهم وذلك لخطورة هذه القيم وصلتها الوثيقة بحماية الفرد والمجتمع فنرى تلك الخطبة قد تنقلت بواسطة هذه الموضوعات من معلم إلى معلم ومن غرض إلى غرض وكل فكرة تحملها ذات طابع فني جميل.

فقد أتى في مطلع خطبته (بمقدمة مثيرة للانتباه إلى ما بعدها، ثم انتهى منها إلى قوله (أيها الناس) وأخذ يبين معالم الدين وحدوده، ويحض سامعيه في أمر دينهم ودنياهم، إذ يقول:(إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا) وفي هذا انتقال من الكلام عن الأمور العامة إلى الكلام عن الشئون الخاصة، ومن المسائل الجماعية إلى المسائل الشخصية، وبهذا وذاك يسعد المجتمع، وتتهيأ أسباب الحياة الصالحة للناس كافة.

وتلك الموضوعات المندرجة في ثنايا تلك الخطبة، ذات معان شريفة سامية، تأخذ بلباب السامع والقارئ لأنها من إلهام النبوة، ونتاج الحكمة وغاية العقل، فلننظر إلى خصائص الأسلوب الذي أديت به تلك المعاني.

أنه بأدنى نظرة فاحصة تتبدى لنا فنية الكلمة التي تأخذ مكانها في معيار الفصاحة، فلئن كانت الفصاحة راجعة إلى حسن الملائمة بين الحروف باعتبار أصواتها ومخارجها، حتى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللغوي فهذا أمر لم يتم إلا لمحمد ، فقد تهيأ له من إحكام الضبط وإتقان الأداء لفظ مشبع، لسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب ونظم متساوق([[26]](#footnote-26))، فكل جملة أخذت مكانها، وأدت معناها الذي سيقت له، وفق إحكام بديع، تزينه كناية لطيفة، من مثل قوله :(إنما النساء عندكم عوان) فلفظة (عوان) كناية عن ضعف المرأة.

ولكن لم قال هنا (اتقوا الله في النساء) وقال في خطبة أخرى:(فاتقوا النساء)؟ لا خلاف بين القولين، ولا تناقض في الوصايتين فإن في النساء لخطرا يخشى قد تضعف الرجال حياله، فجاء التركيب هناك بجملة (فاتقوا النساء) وإن في النساء لضعفا يرحم، قد تصول الرجال إزاءه، فجاء التركيب منتظما من خلال قوله :(فاتقوا الله في النساء) وتأمل هذا المجاز من قوله :(ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع فهو تعبير تذهب فيه الكلمة كل مذهب، وتبقى النفس إزاءه متشعبة، لكن سرعان ما تهدأ وقد علمت أنه مجاز المراد به إذلال أمر الجاهلية، وحط أعلامها، ونقض أحكامها، كما يذل الشيء الموطؤ الذي تدوسه الأخامص الساعية، والأقدام الواطئة، فلا يبقى منه مرفوع إلا وضع، ولا قائم إلا صرع([[27]](#footnote-27)).

وانظر إلى وجازة هذا المثل في قوله (الولد للفراش وللعاهر الحجر فهو من الفوائد التي اختص بها النبي الكريم " ومعناه لا حق له في نسب الولد"([[28]](#footnote-28)).

وأمعن النظر في التركيب مراعيا ذلك "الختام الموسيقى للصوت" يلتزمه - أخر كل مقطع من مقاطع هذه الخطبة تلك العبارة الجميلةـ، ذات الإيقاع الصوتي العذب، والنغم الممتد "ألا هل بلغت" اللهم اشهد إنها الفطرة السليمة، والذوق الرفيع يهديان عفوا إلى من تقصر دونه بلاغة البلغاء من كل صاحب صنعة، وفن مجلوب، بل هذه هي اللازمة التي رددها عبر هذه الخطبة، وهى لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ومعناها، لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات، فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله ألا هل بلغت اللهم اشهد([[29]](#footnote-29)).

وإذا كان الموضوع هو الغرض الأساس الذي من أجله يقصد العمل الأدبي فتلقى الخطبة، أو تنشأ الرسالة، أو تنظم القصيدة، وإذا كانت الأعمال الأدبية في بيئة ما إنما هي صدى دقيق لما يتردد في هذه البيئة من أحداث وما يجري فيها من أمور فلابد أن يسلك الأديب طريقة فذة في التعبير تملك إلى قوة التأثير، واستثارة العواطف تحريك العقول طلبا للامتثال فلا يجنح الأديب في تعبيره إلى إحكام الصنعة متناسيا تحقيق المعنى في صورة متلائمة، وتلك الخاصية نلحظها في تعبير النبي الكريم، فهو لا يحفل بصياغة القوالب، بقدر ما يحفل بالمعنى وتبليغه أذهان السامعين، وشاهد ذلك ما لمسناه في خطبته تلك فقد تناسقت ألفاظها وتلاءمت تراكيبها فجات أنماطا من التعبير المبتكر.

وآية ذلك قوله :( إنما النساء عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا" الولد للفراش وللعاهر الحجر وقوله "ألا هل بلغت اللهم اشهد.

المعنى هو المقصود من تلك التراكيب طلبا للامتثال، وقد حرك الشعور، واستشعار العقل، دون تكلف في الصناعة اللفظية.

ومن أروع خصائص التعبير في هذا النص الكريم: اكتمال الوحدة الموضوعية، فعلى الرغم من تناول عدد من الموضوعات في هذا النص فإننا نلحظ بناءه على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتزهيد في الدنيا، والغض من قيمتها، والتحبيب في الآخرة والعمل لها. فكأنما هذا النص قد نظم في خيط واحد، لا اختلال في عقده، ولا عيب يلحق مبناه ومعناه.

وخلاصة القول: أن أسلوب هذه الخطبة، وأسلوب غيرها من الكلام النبوي الشريف. لا يملك أي ناظر إلا أن يقول فيه:((إن الجمال الفني في بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها. فكلامه صلى الله عليه وسلم – يجري مجري عمله. كله دين وتقوى وتعليم. وكله روحانية وقوة وحياة فيه روح الشريعة ونظامها وعزيمتها في نسق هادئ هدوء اليقين من روح نبي مصلح رحيم))([[30]](#footnote-30)). ولا يستعذب التكرار وطول الاستشهاد بهذه الدرر من روائع الأدب الإسلامي في الخطابة ولا نص أجمل ولا أجود من خطبه صلى الله عليه وسلم وخطب صحابته الأجلاء ومنهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي، وقد سبق أن درسنا نصا خطابيا للخليفة الراشد على بن أبي طالب رضي الله عنه.

فلنقف على شيء من خطب أبي بكر، وخطب عمر، طلبا للاختصار غير مغفلين مكانة عثمان الخطابية. يقول أبو بكر – رضي الله عنه – من خطبة له:((الحمدلله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه وأستهدي الله بالهدي، وأعوذ به من الضلالة والردي، ومن الشك والعمى، ومن يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حي لا يموت يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون أرسله إلى الناس كافة، رحمة لهم، وحجة عليهم، والناس حينئذ على شر حال في ظلمات الجاهلية، دينهم بدعة، ودعوتهم فرية، فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم - ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون، فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، فأطيعوا الله ورسوله. فإنه قال عز وجل:((من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا".

أما بعد أيها الناس: إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس فيها دون الصدق من الحديث خير، من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك، وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حي وغدا ميت، فاعلموا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضرا، فإنه قال عز وجل:

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)}([[31]](#footnote-31)).

فاتقوا الله عباد الله وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله إنه غفور رحيم فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنا على طاعتك، وانصرنا على عدوك))([[32]](#footnote-32)).

إن هذه القطعة النادرة من خطب أبي بكر رضي الله عنه لمن أجود الخطب الإسلامية بعامة، ومن أجود خطبه بخاصة، وذلك لما اشتملت عليه من المعاني الشريفة السامية في أسلوب جزل رصين فقد راعى رضي الله عنه وأرضاه أسلوب هذا النص حيث أفرغه في قالب يناسبه، لأن ((المعاني الجزلة لا بد لها من ألفاظ وجمل وتراكيب في غاية الفخامة، والمعاني الرقيقة المستملحة لا بد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة ليحصل التشاكل والتناسق بين النوعين، وتكون المعاني مع الألفاظ كالعروس المجلوة في الثوب القشيب.. مع إعطاء كل موضوع حقه من شدة العبارة ولينها في النطق، ليكون ذلك أدل على المعنى))([[33]](#footnote-33)).

إن هذه الخصائص الفنية مجتمعة قد تحققت في نص هذه الخطبة وكان الباعث عليها ما استقر في قلب قائلها من الإيمان بالله وحده والإيمان بمحمد ورسالته التي هي الإسلام دون ما سواه.

ولا أحد يجهل مكانة أبي بكر الصديق في الجاهلية من حيث تحليه – رضي الله عنه – بالقيم الإنسانية الرفيعة التي جملتها سلامة منطقه وسمو بلاغته فكان لزاما أن تأخذ هذه البلاغة مكانتها في كلامه تأثرا بهدي الإسلام من خلال الهدي القرآني والكلام النبوي الشريف، ولذلك لا نجد في ألفاظ خطبته هذه ما يكدر صفو المعنى من لفظ وحشي غريب أو ذي تنافر أو بعد عن حد الفصاحة.

وإنما هي ألفاظ سهلة سلسة منتقاة، ولا نجد في المعاني التي عبر عنها معنى مستغلقا أو ساقطا مرذولا، أو عامياً مسفا، أو غامضا مستكرها.

ولا نجد أثرا للصنعة المتكلفة، فقد عريت أجزاء هذه الخطبة من زخرف القول حتى بان في معانيها تلاحق الفقرات من غير عناء، لأنها من قبيل الوعظ والإرشاد في طابع إسلامي رصين النسج محكم العبارة يتخلله درر من آيات الله البينات، لإقامة الحجة والبرهان على المعاني التي سيقت في ثنايا النص.

وتكاد تكون خطب الخلفاء والحكام والولاة طوال صدر الإسلام والعهد الأموي،، وصدر من العهد العباسي من هذا اللون المشبع بالدليل والاقتباس وسوق الحكمة والمثل والبعد عن تكاليف الصنعة والزخرف البديعي. ونلحظ عنصر التأثير كامنا في عبارات الخطيب على نحو ما ورد في جمل خطبة أبي بكر – رضي الله عنه – غير أن هذا التأثير في هذه الخطبة ليس وليد عاطفة مثارة وإنما وليد عبارة محكمة مؤيدة بصدق الكلمة ووضوح الدليل.

ولذلك جاء ((أسلوب العرض متماسكا متلاحم الأقطار لم يضعفه التفكك وتخلخل الفكرة.. جاء مرتبا غير مضطرب، واضحا بعيداً عن اللبس والاحتمال قاطع الدلالة على الغرض، صادقاً لا يتسرب إليه الريب))([[34]](#footnote-34)).

وإذا كان هذا اللون من الخطابة الإسلامية يغري بالمضي في إيراد شواهد أخرى فإن من بديع الأدب الإسلامي في هذا السبيل عدد من خطب الخلفاء والقادة الإسلاميين الذين حفظت لهم كتب التراجم والسير، ومصادر الأدب عدد من الخطب التي لا تجار. فلنقف على هذا النص البديع من كلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى وصاياه التي هي أشبه بالخطبة لما تضمنته من مواد ونظم يعتمد عليها في إقامة شعائر الدين وأحكامه وفق ما حدده القرآن الكريم وبسطته السنة النبوية الشريفة.

يقول - رضي الله عنه – للخليفة من بعده:

((أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا: أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيرا، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا، فإنهم درء العدو، وجباة الأموال والفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، إن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيرا: أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون.

وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه، ومخافة مقته، إن يطلع منك على ريبة.

وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله.

وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم. ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم، فإن ذلك بإذن الله – سلامة لقلبك، وحطاً لوزرك، وخيراً في عاقبة أمرك، حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك.

وآمرك أن تشتد في أمر الله، وفى حدوده وقمع معاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحد الرأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمه، واجعل الناس سواء عندك، لا تبالِ على من وجب الحق، ولا تأخذك في الله لومه لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك.

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك، اقترفت به إيمانا ورضوانا، وإن غلبك عليه الهوى ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله ومعاصيه.

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة وقد أوصيتك وحضضتك، ونصحت لك، أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسي وولدي فإن عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الذي أمرتك. أخذت به نصيبا وافيا، وحظا وافرا، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك ولم تنزل معاظم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك، يكن ذلك بك انتقاصا، ورأيك فيه مدخولا، لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة، والداعي إلى كل هلكة إبليس. وقد أضل القرون السالفة قبلك فأوردهم النار، ولبئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالاة لعدو الله، والداعي إلى معاصيه، ثم اركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظا لنفسك، وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم، ورحمت صغيرهم، ووقرت عالمهم، ولا تضربهم فيذلوا ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم، وتحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم، ولا تجمرهم في البعوث فتقطع نسلهم، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم. هذه وصيتي إليك، وأشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام"([[35]](#footnote-35)).

هذه الوصية التي هي من قبيل الخطابة الإسلامية تعد من عيون النثر الفني، ومن غرر الأدب الإسلامي وبدائعه التي لا ينضب معينها، وهذا شأن الخطبُ الوصايا والمواعظ والرسائل والعهود الإسلامية من لدن عهد النبوة المحمدية إلى العهد الأموي كله، إلى العهد العباسي حتى عهد النهضة الحديثة فقد أنجب العالم الإسلامي المعاصر خطباء وكتابا كلهم يزن الكلمة المعبرة بمعيار الحكمة لا الصنعة وحسبنا في هذا السبيل خطباء مصر والشام وغيرهما من رقعة الأمة الإسلامية في مختلف بلدانها. وسندرس عددا من نصوص الأدباء في هذه الألوان الأدبية من مختلف العهود – برهانا على ما للأدب الإسلامي من سمات وخصائص تميزه عن غيره في دنيا الأدب. وما أحوجنا إلى الدراسة الفنية التطبيقية، لاسيما وقد تجاوزنا المرحلة المنهجية لإحلال الأدب الإسلامي مكانته اللائقة به ليكون سراجا وهاجا يضئ للأدباء طريقهم في عطائهم الأدبي الغائي النبيل الهادف.

وقبل أن نتوغل في دراسة عدد من النصوص. نعود إلى وصيه الخليفة الراشد – عمر بن الخطاب رضي الله عنه – لنتبين شيئا من خصائصها الفنية على قدر ما يفتح الله به ويعين عليه.

إن هذه القطعة الأدبية من كلام عمر رضي الله عنه، حكم صائبة، وآراء سديدة، وبند إسلامي جمع وأوعى تجارب الشخصية الإسلامية المثالية التي تأدبت بآداب الإسلام قلبا وقالبا. فألفاظ هذه الوصية ألفاظ ذات نبرات إسلامية مؤثرة كلها يقين وإيمان لصدورها من قلب عاطفة مشبوبة صادقة وقودها الإيمان. فإنه على الرغم من طول نفسها، وتعدد عباراتها لم تحمل أي جملة فيها لفظا نشازا عابه تلقف لمفرده غريبة أو وحشية أو تعقيد لفظي أو بعد عن حدود الفصاحة والبلاغة، وابعد من ذلك في مدارج التعبير الأدبي والفن البياني الرائع. إن هذا النص يشتمل على ما يقرب من ثلاثمائة لفظة لا ترى في واحدة منها ما يمكن أن يعيبه ناقد. وما ذلك إلا فيض الخاطر وعفو البديهة فعمر رضي الله عنه وأرضاه واحد ممن تخرج في مدرسة القرآن الكريم ومدرسة الحديث الشريف فوق ما حباه الله من قوة العارضة وشدة الشكيمة، ورباطة الجأش، وكبر العقل، وصدق العاطفة مع صدق اليقين ويكفى في قوة ذلك العطاء الأدبي وصدقه ووضوحه، وضوح صاحبه فهو أول من رفع التكبير معلنا إسلامه جهراً لا سراً.

وإذا كان من خصائص النثر الفني الصادر من هدي الإسلام وبخاصة ما كان منه من قبيل الخطب أو الوصايا أن يحمل طابعا متميزا يتبين في (إثارة العقول، وتنبيه الأذهان، وحملها على الامتثال والإذعان، وفى التأثير في الأرواح، وجذب القلوب، وفي استمالة النفوس بإثارة العواطف([[36]](#footnote-36)) فإن هذه الخصائص مجتمعه قد تحققت في كلام عمر رضي الله عنه في هذه الوصية البديعة. ولكنها خصائص تعبيرية ذات قيم إنسانية رفيعة. جاءت في إطارها ومضمونها من وحى البديهة. دون تنسيق وإعداد مسبق.

وقد زان عرضها وأقسام فقراتها وأفكارها طائفة من الجمل المقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كقوله في التعبير عن بعض الفقرات.

"وإذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون" فهي من قول الله تبارك وتعالى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)}([[37]](#footnote-37)).

"ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم" فهي من قول الله تعالى:"{كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ}([[38]](#footnote-38)).

وكقوله رضي الله عنه:

"واجعل الناس سواء عندك" فهو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلمون سواسية كأسنان المشط" وقوله صلى الله عليه وسلم: المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم".

وانظر إلى تلك الدرة من كلام عمر من قوله:"أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم" فهي من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه قاضيا ومعلما إذ قال له: وأن تأخذ من أموال أغنيائهم صدقة فتردها على فقرائهم. وكلتا الوصيتين من قول لله تبارك وتعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}([[39]](#footnote-39)).

إنه القرآن بتعبيره المعجز قد استحوذ على قلوب المسلمين يوم أن أسلموا وقبل أن يسلموا.

ومنهم عمر بن الخطاب الذي شرح الله صدره للإسلام بآيات سمعها في بيت أخته وأسلم أهله إنه القرآن فلقد بهرت كلماته وآياته عقول العرب وقلوبهم. وقدمت لهم مثلا أعلى في جمالية التعبير ما كان يخطر لهم على بال.. وكيف يخطر لهم على بال وهو من عطاء الله الذي لو كان البحر مدادا لكلماته والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلماته"([[40]](#footnote-40)).

وهذا كله عن الخصائص الفنية لأسلوب وصية عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بالألفاظ، فكيف المعاني. إن ميدانها لأرحب في استكناه الخصائص الفنية الرفيعة لصدورها من شخصية فذة تتلمذت على شخصية فذة شخصية محمدا المعلم الأول للرعيل الأول من المسلمين وللمسلمين جميعا. محمد الذي كانت الخطابة شعار دعوته إلى دين الله مبتدءا بها خطيبا غير شاعر – خطيبا منذ نزل عليه قول الله تبارك وتعالى:{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)} ولذلك جعل صلى الله عليه وسلم هذا اللون من الأدب" شعار كل إمام يعتلي المنبر في الجمعة والعيدين، وموسم الحج الأكبر، وعند أخذ العدة للجهاد وفى كل أمر جامع لنشر فضيلة أو نهي عن رزيلة ، أو إعلان نصر، أو تأكيد وصية عامة أو خاصة، ولذلك كان أمراء جنده، وقواد سراياه وخلفاؤه من بعده كلهم خطباء مصاقع))([[41]](#footnote-41)) يهزون أعواد المنابر بفصاحتهم التي لا تجارى، وبلاغتهم التي تبلغ من القلوب أعماقها، ومن النفوس أغوارها. في طراز من ذلك الكلام الذي يسبق معناه لفظه من غير إسفاف، ومن غير تكلف.

وإذا كانت هذه الموضوعات التي مر ذكرها في الكلام على خصائص الخطب المحمدية فان هذه الموضوعات من أجل المعاني السامية الشريفة التي تناولها خطباء الإسلام في كل عصر ومصر، ومنهم عمر بن الخطاب في وصيته تلك، ولا يملك الناظر في وصية عمر، وفي المعاني التي ساقها في كلامه عبر فقرات هذه الوصية إلا أن يقول: إن هذا النص الكريم – في معانيه الراقية – قد استمد من هدي الإسلام: كتاب الله وسنة رسوله. وعلى الرغم من تعدد الفقرات والجمل والتراكيب التي أديت بها هذه المعاني فإن الناظر لا يجد معنى مستغلقا ولا لغزا غامضا ولا معقداً وإنما هي معاني من وحى الفطرة وتأثر القرآن والحديث الشريف، وقد استطاع عمر – رضي الله عنه – أن يجمع في طريقة الأداء بين ما يتطلبه النص الأدبي من حسن اللفظ وصفائه وجزالته وفخامته ورقته وروعة المعنى وتأثيره وعمقه وبعده عن التعقيد.

والشاهد على ذلك ما يقوله ابن خلدون في معرض كلامه على الخطابة الإسلامية عند المسلمين منذ عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلى العهد الأموي وإلى الصدر الأول من العهد العباسي. فقد ذكر ((إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة من كلام الجاهلين في منشورهم ومنظومهم - قال - : فإننا نجد شعر حسان بن ثابت، وعمر بن أبى ربيعة، والحطيئة، وجريراً، والفرزدق، ونصيب، وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، وأمثالهم، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية، وصدر الدولة العباسية، في ترسلهم، وخطبهم، ومحاروتهم للملوك ارفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة، وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبده وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاورتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك إن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في الحديث الشريف بل وفي القرآن الكريم الذي أعجز البشر عن الإتيان بمثله، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، ونهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة، واصفي رونقا من أولئك، وارصف مبنى واعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة"([[42]](#footnote-42)).

وبتحقيق هذه الخصائص في مبنى الخطب الإسلامية ومعانيها برز المسلمون في هذا الفن الأدبي وتسلطوا بأسلوبهم البياني الفريد على النفوس الجافية فألانوها، وعلى القلوب القاسية فعملوا على تهذيبها ورقتها، وظلت الحال طوال العهد النبوي والأموي والصدر الأول من الدولة العباسية على تلك السمات والخصائص حتى داخل هذا اللون الأدبي شيء من عوامل الضعف بسبب اختلاط العرب بالأعاجم وبخاصة من ولي إمرة الجيش الإسلامي وعمالة الولايات والمواسم. مما لا مجال للحديث عنه في هذه الدراسة لاختصاصها بالبحث عن مواطن الإجادة والإبداع في طائفة من بدائع الأدب الإسلامي على نحو ما ذكرناه، وعلى نحو ما سنذكره فيما تبقى من موضوعات.

وإذا كانت هذه السمات والخصائص قد تميزت بها هذه الألوان الأدبية من خطبة ورسالة ووصية وعهد طوال تلك الفترات من تاريخ الأدب الإسلامي الذي استشهدنا له بعدد من النصوص – كما مر - فإن مما يغري بالإفاضة في الحديث عن هذه الألوان ما قيده تاريخ الأدب من نصوص رائعة لعدد من الأنبياء والخطباء فلنتلمس مواطن الإجادة والإبداع في نصوص أخرى من العهد الأموي والعباسي وعصر النهضة الحديثة.

ولسنا بمستطيعين حصر هذه النصوص والكلام عليها لكثرتها وكثرة روادها من شَداة الأدب الإسلامي ولذلك سنكتفي بإيراد نصين أولهما للخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – وثانيهما للخليفة العباسي:((أبى العباس عبدالله بن هارون الرشيد)).

فمن خطبة لعمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – مما أورده ابن قتيبة في ((عيون الأخبار)) قال:((حدثني أبو سهل عن إسحاق بن سليمان عن شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخر خطبة خطب بها عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

((أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم وخاف، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفاً بأمان. ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسنكون من بعدكم للباقين كذلك، حتى نرد إلى خير الوارثين، ثم أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك فقير، إلى ما قدم، فاتقوا الله قبل انقضاء مواقيته، ونزول الموت بكم، أما إني أقول هذا وما أعلم أن عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر الله وأتوب إليه ((ثم رفع طرف رداءه على وجهه فبكى وأبكى من حوله))([[43]](#footnote-43)). وبعد فإن من خصائص هذه الخطبة النادرة؟

ليس غريبا أن يحظى الأدب في العهد الأموي ببدائع من جيد المنظوم والمنثور سواء من كلام الطبقة العامة أو الخاصة، ذلك لأن العهد الأموي اقرب العهود إلى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين علما وأدبا وخلقا واجتماعا فلا بد أن يكون أدباء ذلك العصر سلائل مدرسة النبوة بل مدرسة القرآن الكريم وبخاصة إذا كان الأديب حاكما يسوس المجتمع المسلم ويحكمه بشرع لا ينزع عن رأي أو كلمة إلا بميزان عدل في جميع الحقوق وإذا كان للتأثير بالرأي والفعل مكانته فإن للكلمة قيمتها في التأثير والإمتاع إذا صدرت من أديب حاكم عادل كعمر بن عبدالعزيز رحمه الله.

والفيصل في ذلك ما أورده أبو هلال العسكري في وصف اللسان المبين وتأثير الكلمة بواسطته إذا قال:

((قال بعض الحكماء لابنه يا بني: اللسان أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يراد به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، ومعز يرد الأحزان، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصد يذهب بالضغين.. ألا ترى أن الله تعالى رفع درجة اللسان بأن أنطقه بالتوحيد وليس شيء من الجوارح ينطق به غيره. ((قال أبو هلال في معرض كلامه على المعاني الأدبية السامية المؤداة باللسان المبين الذي يحتج به في تفصيل الكلام على الصمت)) – ومن أجود ما احتج به للكلام ما أخبرنا به أبو احمد قال حدثنا أبو تمام قال: تذكرنا الكلام في مجلس سعيد بن عبدالعزيز التنوخي وحسنه والصمت ونبله فقال سعيد:((ليس النجم كالقمر إنك إنما تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت. وما أنبا عن شيء فهو اكبر منه. قال وذكر الكلام في مجلس سليمان بن عبدالملك فذمه أهل المجلس فقال سليمان:

((كلا إن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن، وليس كل من سكت فأحسن قدر أن يتكلم فيحسن ا – هـ))([[44]](#footnote-44)).

وإذا كان من خصائص الكلام الأدبي ما نوه عنه أبو هلال في هذه النصوص من حيث إحراز الفضيلة لمعالي الأمور من خلال الكلمة فأين نضع خطبة الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز في نصها لفظاً ومعنى؟

قبل أن نتبين شيئا من الخصائص الفنية في هذه القطعة الأدبية البديعية يحسن أن نشير إلى ما يتناقله النقاد العرب – قديما وحديثا عن الأسس الخطابية التي وطد دعائمها – في نظر هؤلاء النقاد رائد الفكر اليوناني ((أرسطو)) حيث جعل منها عدداً من الأسس الهامة في إنشاء الخطبة لفظا ومعنى وجعل هذه الأسس النقدية في تقويم هذا اللون من الأدب الذي عزا جودته إلى اعتماد الخطبة على ما يلي:

1. المقولات وتعنى الأدوات التعبيرية التي يؤدي بها المعنى.
2. التفسير: أى بسط الفكرة وشرحها للمتلقين.
3. تحليل القياس: ويجرى ذلك في تطبيق فكرة على فكرة مما يجرى في الأعرف لدى كل مجتمع.
4. البرهان ويعنى سطوع الحجة وقيام الدليل العقلي على ما يرمي إليه الخطيب.
5. الجدل([[45]](#footnote-45)) ويعني ذلك قوة المحاكمة والعرض والبرهنة على ما يختلف عليه من معان تفرض نظاما أو تدعوا إلى إسقاط نظام آخر وإيجاد بديل عنه.

إن كل هذه الأسس التي كثر ذكرها في آثار ((أرسطو)) وبخاصة كتابه ((الخطابة)) وكتابه ((الشعر)) قد أصبحت مجال بحث ونظر لعدد من علماء الإسلام ومفكريه على الرغم من غناء الفكر الإسلامي ومدده الفياض النابع من هدي القرآن الكريم والسنة الشريفة وكلام الأنبياء والأدباء من مفكري الإسلام قديما وحديثا.

وإنما أوردت هذا الكلام لكي تتضح الرؤية الأدبية في كلام عمر بن عبدالعزيز في ذلك الطراز العالي من الأدب الإسلامي الذي لم يكن بحاجة إلى الأخذ بآراء ((أرسطو)) في تقويم العبارة الأدبية.

وإذا كان في الفكر اليوناني من أسس دعائم النص الأدبي في تقويمه كأرسطو وغيره فإن في أدباء الإسلام من أربى على أسس أرسطو وانطلق بالرؤية الأدبية نحو الجودة والإبداع.

وحسبنا في ذلك أدب محمد صلى الله عليه وسلم وأدب صحابته وأدب الأمة من الرعيل الأول والسلف ومن حذا حذوهم في تقويم العمل الأدبي من الخلف أولئك الذين يقفون عند اللفظة الواحدة ويشبعون الكلام عليها حتى تستقر في نسق الكلام مؤثرة أو تنفر منه نابية مستكرهة.

وحسبنا في ذلك بالبيان والتبيين للجاحظ، والصناعتين لأبى هلال العسكري، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي وآثار عبدالقاهر الجرجاني، والمثل الثائر لابن الأثير، وزهر الآداب للحصري، ويتيمة الدهر للثعالبي والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها مما لا يحصى عددا.

وإذا كان من الخصائص الفنية التي تضفي على النص الأدبي مما يجعل النقاد وصفا للألفاظ كالقوة والوضوح والجمال فان هذه النعوت من أجل الخصائص الفنية لخطبة عمر بن عبدالعزيز.

((والوضوح ألزم صفات الأسلوب الأدبي، وأولاها بالرعاية لأنه يحقق الغاية الأساسية وهى الإفهام.. ويكون ذلك بإيقاظ العقول الخامدة، وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في نفوس المتلقين وبذلك يهيب النص الأدبي للأفكار حياة أقوى من حياتها العقلية لتكون ممتعة مؤثرة فهذه الحياة أو هذه الخصوصية هي التي تسمى القوة. والقوة صفة نفسية تنبع أول أمرها من نفس الأديب الذي يجب أن يكون متأثرا منفعلا إذا شاء من قراءة حماسة وقبولا وانفعالا. والقوة بذلك تعني صفة العاطفة والإرادة والأخلاق قبل أن تكون صفة الأسلوب))([[46]](#footnote-46)).

وإذا فحصنا كلام عمر رحمه الله ووضعناه على محك هذا المقياس النقدي أعنى مقياس قوة الألفاظ ووضوحها وجمالها فسنلقى عددا من الفقرات ذات الطابع الفني الجميل الذي يحمل تلك الخصائص مثل قوله:

"فإنكم لم تخلقوا عبثاً".

"وإن لكم معاداً ينزل الله للحكم فيكم، والفصل بينكم".

"ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم وخاف".

"وباع نافدا بباق".

"وقليلاً بكثير".

وخوفاً بأمان".

إن هذه الألفاظ في هذه الجمل والتراكيب تشكل أسلوبا بيانيا فريدا رائعا حيث لا غرابة ولا تعقيد وإنما سلاسة وعذوبة ووضوح وجزالة وجمال.

وفوق أنها بهذه النعوت فهي خدمة للمعنى حيث تناسق رصف الجملة والتركيب في عدد من الفقر التي تتراوح بين الطول والقصر مع ما ازدان بها نظما من تلك المقابلات الفنية العجيبة بين قوله:

نافداً بباق، قليلا بكثير، خوفا بأمان، الهالكين والباقين، غاديا ورائحا إلى الله، غني عما ترك فقير إلى ما قدم.

وإذا كان من الخصائص الفنية التي تجلي النص الأدبي، وتغشيه بالقبول وتمنحه سمة التأثير والخلود، مما يجرى على لسان قائله من سوق الحكم الصائبة وضرب الأمثال السائرة، والاقتباس اللطيف من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فإن في كلام عمر رحمه الله من هذه الخصائص ما جعل خطبته تلك في أعلى الطبقة العليا من مدارج البيان بعد القرآن الكريم والحديث الشريف ومن جملة هذه النعوت التي تميزت بها كلمات هذا النص قوله:

((وحرم جنة عرضها السماوات والأرض)) من آية قرآنية"، فهو مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم)) هذه الجمل المتساوقة من حديث نبوي شريف، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الرجل صحبه ثلاثة أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى الثالث: يرجع أهله وماله ويبقى عمله([[47]](#footnote-47)).

ومن الحكم الصائبة قوله (لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم)).

وإذا كانت تلك الخصائص إنما هي في الألفاظ فماذا عن المعاني، إن الأدب في إطار التصور الإسلامي هو إلهام الكلمة الغائبة المعبرة التي تملك التأثير في سرد عدد من الموضوعات التي ترسم أبعاد الأدب وصلته بالعقيدة ذلك الموضوع الذي تبين فيه مهمة الأدب ووظيفة الأديب ومهمته في الحياة، وما يجب أن تحمله رسالة الأدب والأدباء من كلمة صادقة طيبة وفكرة هادفة سليمة ورأي سديد يعالج الأدواء التي يشكو منها المجتمع المسلم، ومعلوم أن الخطوة الأولى في الأعمال الأدبية هي ما يستجمع الأديب شاعرا أو كاتبا أو قاصا أو خطيبا ما يدور في ذهنه ويعتمل في صدره من أفكار سيبنى عليها موضوعه، وهذه الأفكار – في أكثر الأحيان – تكون عامة يكاد أن يشترك فيها كثير من الناس، لكنهم متفاوتون في المعاني التي تشرح هذه الأفكار وتجليها، ولذلك كانت المعاني الأدبية هي مجال التفاضل بين كاتب وكاتب، وشاعر وشاعر، وخطيب وخطيب، وأحر بهذا التفاضل في مضامين الأدب الإسلامي كثرة ووضوحا ونبلا وشرفاـ وبخاصة في هذا النص الخطابي من كلام عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله.

وإذا كان لكل لون من ألوان الأدب خصائص ومميزات تبرز سماته وترسم أبعاده، وتحدد غاياته، وترقى بمؤدبيه ومتلقيه إلى أرفع درجات الكمال من التأثر والتأثير والمتعة إذا كان ذلك من خصائص كل أدب فإن الأدب الإسلامي بجميع ألوانه يستجمع هذه الخصائص والمميزات ويزيد عليها، لأنه في خصائصه ومميزاته أدب نابع عن التصور الإسلامي للحياة والأحياء فكان لزاما أن يكون من خصائص ذلك النص الفريد من كلام عمر تلك السمات التي ينادي بها علماء الأخلاق والاجتماع ورجال الفكر والأدب من مثل خصوصية الالتزام، وخصوصية الشمول والعموم، والواقعية والايجابية والإبداع، وحسن الإتباع، والأديب الملتزم ليس ذلك الأديب الذي لا يخرج عن نطاق بيئته إلى بيئة أخرى وإنما الأديب الملتزم هو ذلك الأديب الذي يطل بعطائه من نافذة واسعة على مجتمعه ليعالج ما يشكوه من أدواء ويخرج بأدبه على الأدب العالمي ليأخذ منه بمقدار على حسب ما يخدم العقيدة وتلك الخصائص قد تحققت في هذه الخطبة فقد استطاع عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أن يبرز الأدواء ويضع الدواء النافع من خلال هدى الإسلام الذي يميز الشخصية الإسلامية، ويطبع سيرتها الذاتية بطابع الخلق القويم، ولنا أن نسأل:

* ماذا عن السيرة الذاتية للأديب المسلم، من خلال عطائه الفكري، ومن خلال ما يكتبه عن نفسه إن جاز له أن يؤرخ لحياته الأدبية والعلمية وبخاصة من كان مفكرا وخطيبا مسلما كعمر بن عبدالعزيز رحمه الله.

إن الأدب في أجناسه جميعها يعتبر في أبسط مفهوم له مادة ينزع عنها الأديب ويصدر منها ما يراه نافعا وما يراه ضارا، ومعلوم أن البيئة بزمانها ومكانها وملابساتها تكاد تكون مصدر حكم نقدي من الأديب وعليه، فان صدق في مضمون عبارته ونحا بها صوب العطاء النافع كان ذلك الأديب الذي يحس بنفسه ويحس به مجتمعه، وأن يساير الإحداث مؤيدا لتفاعلاتها أيا كانت، وإن حاول تغطية الصحيح من القول معنى ومبنى كان ذلك الأديب الذي تلعب به عواطفه ولا يستطيع التحكم فيها ولا مغالبتها وحملها على الحق الصراح الذي تمليه رسالة الأديب ومهمته في الحياة، وإذا وقفنا على عدد من قصائد الشعراء وقصص القصاصين وأعمال الأدباء عامة، فقد لا نجد ذلك اللون الصادق المصدوق مما يحرره الأدباء عن سيرهم الذاتية أو يكتبه غيرهم عن حياتهم وملابساتها وتكاد تكون هذه الظاهرة أو هذه الخصوصية إنما تصدق في إطارها ومضمونها على هذه الخطبة فهي في موضوعاتها وأفكارها سيرة ذاتية تنم عن شخصية فذة في السلوك والأتباع والانتفاع بأحكام الإسلام ومثله الرشيدة ويؤيد هذا المبدأ الخلقي في رسم أبعاد الشخصية الإسلامية قول عمر من خطبته تلك: أما أنى أقول هذا، وما اعلم أن عند احد من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله وأتوب إليه) وهذه العبارة من أرقى العبارات في تجسيد الواقعية المثالية من خلال الفن الأدبي الذي ينطلق من وجهة نظر الإسلام في تحديد مفهوم الواقعية بواسطة شخصية الأديب المسلم الذي يترسم بكلمته وفكره وسلوكه معنى الواقعية الإسلامية التي هي (الإبداع البشري الهادف الجميل الذي يرتفع بروح الإنسان باتجاه المثال النقي مبتعدا عن أوحال الأرض وشرورها وآثامها من خلال أبعاده الزمانية والمكانية والفكرية([[48]](#footnote-48))، وهذا هو ما نلحظه في ثنايا هذه الخطبة من كلام عمر في تجسيد المعاني الإسلامية الغائية النبيلة الهادفة من مثل قوله رحمه الله:(أما بعد: فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى" "ألم تعلموا انه لا يأمن من غد إلا من حذر اليوم وخاف) (ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، ستكون من بعدكم للباقين).

هذه هي الواقعية المثالية في مضامين الأدب الإسلامي: إنها معاني شريفة سامية تتحدث عن إيمان ويقين لتفصح عن مبدأ الخلق للإنسان والغاية منه، وعن مبدأ السير على منهج الله تعالى بحذر عقابه وبتقواه وعن التفكير في الهالكين الأولين وفي الباقين، ففي ذلك معنى الإيمان بالخالق الذي يحيي ويميت.

ونلحظ من خلال كلام عمر بن عبدالعزيز في هذه الخطبة، وفي خطب غيره من المسلمين في العهد النبوي وشطر من العهد الأموي، نلحظ ظاهرة تكاد تكون من خصائص الخطب عند الجاهليين، وتلك الظاهرة أو الخصوصية هي اتسام الخطبة الجاهلية بالإيجاز والقصر والسجع والاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال.

ولا شك أن الخطابة الإسلامية قد حافظت على جل هذه الخصائص باستثناء السجع الذي اختفى أو كاد بسبب نهي رسول الله عنه لما فيه من تشبه بسجع الكهان، فقد روي في الحديث الشريف أن الرسول : قد قضى على رجل في جنين بديته فقال الرجل: يا رسول الله أأدي من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل فمثل ذلك يطل؟: فأنكر النبي هذا الأسلوب على الرجل وقال له: أسجعا كسجع الكهان؟([[49]](#footnote-49)).

ولا شك في صحة هذا الخبر، ولا شك في ظهور هذه الخصوصية التي هي انتفاء السجع من الخطب الإسلامية ولكن ليس الأمر على إطلاقه فإنما المقصود بالسجع الذي ذمه الرسول الكريم، وعريت منه الخطب الإسلامية هو السجع المتكلف، ولذلك قيده الرسول الكريم بسجع الكهان على حد قوله:"أسجعا كسجع الكهان".

أما السجع المطبوع غير المتكلف فقد جاء في كلام العرب جاهلية وإسلاما وندرة هذه الخصوصية في كلام الرسول الكريم وكلام صحابته لا تعني تحريمه وإنما تعني ذمه وذم قائله متى كان متكلفا كسجع الكهان.

ولبعد تأثيره في النص الأدبي من حيث المعنى والمبنى درسه البلاغيون ونقاد الكلام حتى صنفوه أبوابا ونوعوه أنواعا فجعلوا من السجع الطويل الفقر والسجع القصير، والسجع المزاوج والسجع المتوازي والمطرف والترصيع والمتوازن وساقوا له الشواهد من القرآن الكريم ومن كلام العرب، يقول عبدالقاهر الجرجاني:

((ولست تجد هذا الضرب يكثر في شيء ويستمري كثرته واستمراره في كلام القدماء كقول خالد:(ما الإنسان لولا اللسان)؟ إلا صورة ممثلة وبهيمة مهملة، وقول الفضل بن عيسى الرقاشى: سل الأرض، فقل من شق أنهارك، وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا، قال عبدالقاهر:

(وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبي تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التي قدمت، وذلك كقول النبي :(الظلم ظلمات يوم القيامة)[[50]](#footnote-50)\* وقوله :(لا تزال أمتي بخير ما لم تر الغنى مغنما والصدقة مغرما[[51]](#footnote-51)\* وقوله:(يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام[[52]](#footnote-52)\*.

قال عبدالقاهر: فأنت لا تجد في جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه، وأبر به، وأهدى إلى مذهبه([[53]](#footnote-53)).

ويقول الرازي:(ثم إن روعي التساوي في جميع كلمات القرائن كان أحسن كقول الله تعالى:"وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"([[54]](#footnote-54)\*).

ويمضى قائلا: واعلم أن السجع قد يكون متكلفا بالتعسف، وعلامته أن يكون الحرف لم يحتج إليه لأجل المعنى، وإنما احتيج إليه لأجل التقفية أو إن كان فيه معنى فقد ترك الأولى منه وذلك هو السجع القبيح([[55]](#footnote-55)).

ومعلوم أن نصوص الأدب الإسلامي من خطابة أو رسالة أو عهد أو وصية أو شعر سواء كانت هذه النصوص من العهد النبوي أو من العهد الأموي معلوم أن معظم النصوص الأدبية في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الأدب قد عريت من زخرف القول والصنعة المتكلفة بما في ذلك ظاهرة السجع وبرهان ذلك ما مر معنا في أول الفصل من هذه الدراسة بما في ذلك خطبة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله.

وإذ كنا نستمد الإبداع من إيراد عدد من نصوص الأدب الإسلامي عبر تاريخ الأدب سواء من النثر بأنواعه أو من الشعر بألوانه فإن في كلام الأدباء والأنبياء ما ينهض بعدد من الدراسات البيانية والنقدية والأدبية سواء من أثار المتقدمين – كما مر ذكره – أو من أثار من وليهم إلى عصر النهضة الحديثة.

وما دام الكلام على نصوص الخطابة لم يزل متصلا أولاً بآخر فهذه خطبة أخرى للخليفة العباسي (أبي العباس عبدالله بن هارون الرشيد) حيث أشرنا إلى اختيارها فيما تحدثنا عنه سابقا([[56]](#footnote-56)).

ذكر ابن قتيبة – في عيون الأخبار – خطبة أبى العباس المأمون عبدالله ابن هارون الرشيد في يوم الفطر بعد التكبير ما نصه:

"إن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة، يوم ختم الله تعالى به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمه الشهر وأول أيام شهور الحج، وجعله معقبا لمفروض صيامكم، ومتنقل قيامكم، أحل فيه الطعام لكم؟ وحرم فيه الصيام عليكم، فاطلبوا إلى الله تعالى حوائجكم واستغفروه لتفريطكم، فإنه يقال: لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، ثم التكبير والتحميد وذكر النبي والوصية بالتقوى، ثم قال:(فاتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فانه لا تستقال بعده عثرة، ولا تحظر قبله توبة، واعلموا انه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه ولا يعين على جزعه وعلزه[[57]](#footnote-57)\* وكربه، ولا يعين على القبر وظلمته وضيقه ووحشته وهول مطلعه ومسائلة ملائكته، إلا العمل الصالح الذي أمر الله تعالى به فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته، وفاتته استقالته، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا يقبل منه، فالله الله عباد الله فكونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل([[58]](#footnote-58)) المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله تعالى منه، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عندما يضع في ميزانه مما يثقل به، وما يمل([[59]](#footnote-59)) في صحيفته الحافظة لما عليه وله، فقد حكى الله تعالى لكم ما قال المفرطون عندها إذ طال إعراضهم عنها قال:{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ}([[60]](#footnote-60))، وقال:{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}([[61]](#footnote-61)).

ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإنه كل ما لها ينهى عنها، وكل ما فيها يدعوا إلى غيرها، وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله تعالى لها ونهي الله عنها فإنه يقول:{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}([[62]](#footnote-62)) وقال:{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}([[63]](#footnote-63)).

فانتفعوا بمعرفتكم بها، وبإخبار الله تعالى عنها، واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتم عصمة الله تعالى فحذروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله تعالى فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها([[64]](#footnote-64)).

إذا تأملنا أفكار هذا النص من خطبة المأمون أدركنا سر الإيمان وعظمته وكيف يصنع في القلوب اليقظة والضمائر الحية والنفوس الزكية والأرواح المطمئنة.

فإن تعابير هذه الخطبة مواعظ زاجرة، وعبر مؤثرة وأقوال تنم عن حصافة عقل ونضح عاطفة دينية وقودها الآيات والأحاديث الشريفة والتفكير في عظمة الخالق على حد ما قال الإمام ابن الجوزي:

"تأملت على أكثر الناس عباداتهم فإذا هي عادات، فأما أرباب اليقظة فعاداتهم عبادة حقيقية، فإن الغافل يقول سبحان الله عادة، والمتيقظ لا يزال فكره في عجايب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحركه الفكر فيقول "سبحان الله".

ولو أن إنسانا تفكر في رمانة فنظر في تصفيف حبها وحفظه بالأغشية لئلا يتضاءل وإقامة الماء على عظم العجم، وجعل الغشاء عليه يحفظه وتصوير الفرخ في بطن البيضة، والآدمي في حشا الأم إلى غير ذلك من المخلوقات دفعه كل ذلك إلى تعظيم الخالق، فقال:"سبحان الله" وكان هذا التفكير ثمرة الفكر([[65]](#footnote-65)).

وثمر هذا التفكير لدى الأديب المسلم يعني أن من أرقى وظائف الأدب أن يظل مرآة صادقة تعكس ما للأمة والشعب من دور حضاري، وأن يعبر الأدب عن خلجات وأفكار نفس إنسانية حية تعمل لرفعة الفرد والجماعة على حد سواء، والأدب الإسلامي أدعى إلى التأثير بما يعيشه المجتمع المسلم في مكان وزمان من تفاعلات وأحداث ووقائع وسير يزنها الأديب شاعرا أو ناثرا بالقسطاس المستقيم ناصحا ومرشدا وموجها أو متألما نادبا متحسرا إن كانت هذه الأحداث والوقائع والتفاعلات تسير في خط معاكس لما يجب أن يكون عليه المسلم من تبصر وتبصير بحياته وفردا مسلما ينتمي إلى مجتمع مسلم له كيانه ومآله ومصيره وقيمته بين الناس كافة.

وما دام الأمر كذلك فإن الأدب الإسلامي هو ذلك العامل الأساس والأداة الفعالة التي تحرك عجلة المجتمع المسلم وتديره لتعمل وفق ناموس طبيعي يؤثر وينتج بقدر ما تتحد الأهداف وتتجه الآمال ويحسن العطاء معطيه ويحسن المتلقي أخذ ما يسدى إليه.

ولقد أعطى المأمون في خطبته هذه عطاء من يعرف الأدب ويدرك مدى تأثير الكلمة قبل إخراجها ولذلك تنوعت أفكار خطبته في إطارها التعبيري فانتظمت في ثناياها عددا من بسط القيم الخلقية كشرح مفهوم التقوى والحذر من الركون إلى الدنيا وشرح معنى الصلاح.

فمفهوم التقوى – كما جاء في نص الخطبة – أن تقرن بالعمل الصالح والاستعداد لما اعتدل فيه اليقين ولم يحتضر الشك فيه وهو الموت وأن يبادر: بالأعمال الصالحة لتحقيق تقوى الله عز وجل.

فاتقوا الله عباد الله وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم.

والتحذير من الركون إلى الدنيا يأتي في أسلوب من السهل الممتنع فعبارة تذم وتقدح في الدنيا والركون إليها، وعبارة تعتدل في تقويم النظرة إلى هذه الحياة وإنها وسيلة لا غاية.

فمن الصيغة الأولى قوله رحمه الله (ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإن كل ما لها ينهى عنها وكل ما فيها يدعوا إلى غيرها".

ومن الصيغة الثانية قوله:((فانتفعوا بمعرفتكم بها، وبإخبار الله عنها، واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله تعالى فحذروا مصارعها وجنبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها، فأدركوا الجنة بما تركوا منها)).

ويأتي شرح معنى الصلاح والاستقامة على منهج الله تعالى، يأتي في أسلوب رصين محكم تتراوح فقرة بين الطول والقصر كقوله رحمه الله:

((كونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها، إذا منعها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم إلى قوله:(فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة لما عليه وله).

والخلاصة أن هذا النص قد جمع من القيم الخلقية في إطاره ما يثقل به الكلام في التأثير، لأن مجمع الخلق القويم إنما يكون في السلوك ومتى حسن سلوك المرء حسن خلقه ومتى حسن خلقه حسن كلامه ومتى اجتمعت له هذه القيم مال الصلاح والتقوى التي هي الأصل الخلقي الذي تتفرع منه القيم الإسلامية كلها فهي الباعث الملهم لمحامد الأخلاق، وهي الصمام الذي يحكم كل قول ويضبط كل فعل ولذلك نلحظ في نص هذه الخطبة وفي غيرها من نصوص الخطابة الإسلامية إن نص الخطابة في الإسلام قد ساير هذه التعاليم الدينية الهادفة الملتزمة لمحامد الأخلاق([[66]](#footnote-66)) وكثرة تلك النصوص التي سارت في هذا الاتجاه منذ عهد محمد صلى الله عليه وسلم إلى العهد الأموي كله والصدر الأول من العهد العباسي وما وليه من عصور الأدب إلى عصر النهضة الحديثة الذي لم تزل منابر الخطابة فيه تضج بعبارة الوعظ والإرشاد والتوجيه وحسبنا في هذا خطب الدعاة والعلماء الذين لا يزالون ينافحون عن دين الله بالكلمة الطيبة وينشرونه بين الناس وفق منهج سليم فكريا وأدبيا وعلميا فهو جهاد بالنفس والمال والسلاح والكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونلحظ في جميع الخطب الإسلامية خلوها من زخرف القول والصنعة لاتجاهها إلى شرح حقائق الإسلام وتبين نظامه وبسط أحكامه ومثل هذا الشأن لا يصلح فيه أسلوب المجازات وأسلوب الصنعة الكلامية فهو إلى أسلوب الحقيقة أحوج لقيامه بشرح الحقيقة المتمثلة في حقيقة هذا الدين الحنيف.

وإذا كان للخطابة الإسلامية من التأثير ما أمكن أن نوضح شيئاً منه على غرار ما سبق ذكره من شواهد هذا اللون الأدبي فإن في نصوص القصة الإسلامية ما ينهض بمثل هذه القيم، وهذا ما سنقف عليه في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

**الفصل الثاني**

**القصة الإسلامية**

**موضوعاتها**

**خصائصها الفنية**

إذا أراد باحث أن يدرس القصة الإسلامية سواء على مستوى القصة الأدبية أو الأقصوصة، أو الأدب ذي القصص الروائي فإن هذا العمل يعنى بالضرورة الوقوف على معرفة القضايا الجزئية والكلية ومعرفة المقاييس والقيم التعبيرية المتمثلة في استجلاء المسائل التالية:

أولا: العنصر القصصي في الأدب العربي القديم

ثانيا: أثر الإسلام في المسار الأدبي وتوجيهه

ثالثا: الفنون النثرية الإسلامية بعامة، والقصة الإسلامية بخاصة.

رابعا: البنية العامة للقصة الإسلامية.

خامسا: نسج القصة الإسلامية "البناء الفني – اللفظ والمعنى.

سادسا: العناصر الفنية " القيم التصويرية – أو البناء الشعوري"

سابعا: أنواع القصة الإسلامية.

ثامنا: موضوعات القصة الإسلامية.

تاسعا: أغراض القصة الإسلامية.

عاشرا: الإسلامية في منهج القصة الفني([[67]](#footnote-67)).

ومعلوم أن استقصاء هذه الموضوعات يتطلب بحثا مستقلا، فلنقتصر على العنصر القصصي في الأدب العربي القديم، وهذا يعني قضية وسعها البحث العلمي درسا، ووسعها النقد الحديث ما بين إفراط وتفريط، ففريق قد وقف من هذه القضية موقف المنكر المتشدد حيث حكم بعدم وجود القصة في أدب العرب.

ورأى "فقر ذلك الأدب من الناحية القصصية قد بلغ حدا كبيرا، لأن العرب – في نظر هذا الفريق – لم يعرفوا القصة ولم يمارسوها في ماضيهم. وقد أشاع هذه المسألة المستشرق الفرنسي "أرنست رنان" الذي يرى تعرية الأدب العربي القديم من العنصر القصصي، ومثله المستشرق "ديبور" وقد اتجه هذا الاتجاه فريق من الباحثين العرب مؤيدين فكرة القول عند المستشرقين الذين ينادون بخلو الأدب العربي القديم من القصة.

وهذا يعنى أن الفريق المستشرق لم يدرس تلك القضية دراسة فاحصة عميقة تقف الباحث على الحكم المنصف قبل أن يطلقه، وإنما أطلق حكمه لغرض فكري الهدف منه تنقص الفكر العربي والإسلامي ورميه بالضحالة والتقصير.

وإن الفريق الثاني وهم العرب الباحثون الذين ساروا في اتجاه هؤلاء المستشرقين قد غفلوا عن الهدف الإستشراقي من وراء ذلك الافتراء الذي ينزع عن رمي التراث العربي بالنقائص، وأنه عالة على غيره من فكر الأمم الأخرى وحضارتهم، وكان الأولى بالفريقين أن يتفحصوا – بدقة – تراث الأمة العربية ولكل فريق بعد العناية الفاحصة أن يصدر ما يراه موضوعيا في نقد التراث من خلال هذا الجانب.

والحق أن العرب قد عرفوا القصة منذ أقدم العصور وتراثهم حافل بالألوان القصصية المختلفة التي تدل على وجود فطرة تنشئ القصة وتتذوقها، وقد شهد بذلك بعض المستشرقين في آرائهم المنصفة من مثل:"كارل بروكلمان" الذي يقول في حديثه عن أولية النثر:"لم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية، بل كان القاص يقوم – أيضا – مقاما هاما إلى جانب الشعر في سمر الليل، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة، وفي مجالس أهل القرى والحضر([[68]](#footnote-68)). وهذا "جوستاف لوبون" يقول عن العرب في إحدى رحلاته إلى الشرق:"أتيح لي في إحدى الليالي أن أشاهد جمعا عربيا من الحمالين والنواتي والأجراء يستمعون إلى إحدى القصص، وإني لأشك في أن يصيب قاص مثل ذلك النجاح لو أنشد جماعة من فلاحي فرنسا شيئا من أدب "لامارتين" أو "شانو بريان" فالجمهور العربي ذو حيوية وتصور يتمثل ما يسمعه كأنما هو يراه([[69]](#footnote-69))".

وهذه الآراء السابقة القائلة بخلو الأدب العربي القديم من جوانب القصة الأدبية لا اعتماد عليها لأنها تخلوا من الحجة والدليل إذ نفي هذا اللون من الأدب نفي مجمل عام. أما لو كان النفي مسلطا على القيم الفنية في نصوص التراث الأدبي التي حفظت لنا ألوانا متباينة الطعوم تحكي المواقف الإنسانية والطرف التي هي من قبيل القصة والأقصوصة لو كان هذا هو ما يعنيه هؤلاء النقاد لأمكن أن يكون ما تناقلوه ما أراء وأثاروه من نقد مثار جدل وأخذ وعطاء، لأن القصة في الأدب العربي القديم نشأت كغيرها من فنون الأدب لم تستقم لها معالم الفنية إلا عند ظهور الإسلام حين كان من أدوات بسطه ونشره الدعوة إليه بكل بيان وشاهد ذلك القصص القرآني الفريد والقصص النبوي الشريف.

غير أن هذين اللونين من ألوان القصص الأدبي كلاهما لا يخضع في معالمه الفنية لأوهام القصاصين وأخيلتهم.

إذ اللون الأول من كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[[70]](#footnote-70)\* والثاني من كلام رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى[[71]](#footnote-71)\*.

وهناك أمر ينبغي التنبيه عليه، وهو أن هؤلاء القائلين بنفي القصة من الأدب العربي القديم سواء من النقاد المستشرقين أو من نقاد العرب الذي ساروا في هذا الاتجاه لم يحددوا جميعهم الفترة الزمنية المعنية "بالأدب القديم" فبعضهم فصل قي قوله وأراد بالفترة الزمنية "العصر الجاهلي" ويقال لمن أراد أدب تلك الفترة: إن الأمر ليس على إطلاقه، لأن كتب التراث الأدبي حافلة بألوان من القصص كما أسلفنا غير أن هذه القصص ينقصها شيء من معالم الفنية التي يتطلبها الأسلوب القصصي.

وبعضهم أجمل الفترة الزمنية. ولم يحدد قدمها بفترة معينة أو عصر معين، يقال لهؤلاء: إن تاريخ الأدب العربي حين مر بمراحل نضجه وبلغ أوج كماله في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي الذي يعده النقاد عصر ازدهار العربية في علومها وآدابها، إن تاريخ الأدب العربي عبر تلك العصور قد حفل بألوان من القصص الأدبي الفريد الذي مهد للدراسة الأدبية والنقدية في هذا الجانب ويكفي في ذلك فن "المقامات".

بل أين نضع تلك القصص ذات المواقف والطرف مما حفل به الأدب العربي عبر عصوره المتطاولة من العصر الجاهلي إلى أواخر العصر العباسي وأوائل عصر النهضة الحديثة مما نجده قارا في مصادر التراث وبخاصة مصادر التراجم والسير فإن القارئ لا يعدم وجود قصة تحكي موقف هذا الحاكم أو هذا القائد أو هذا البطل أو هذا الشاعر أو هذا العالم، وللعرب في أدبهم منذ جاهليتهم إلى أخر العصر العباسي وأوائل عصر النهضة الحديث عدد كبير من القصص التي تحكي حياتهم الفكرية والأدبية والاجتماعية، ومن جملة ذلك اللون القصصي:"قصص تشرح ما أثر عنهم من عادات وشمائل في الأسباب الدائرة بينهم وبين ما انتهجوه في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل.

وقصص تصف أحوال المرأة العربية، وما تجري عليه تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها، ومعاونتها له في الحياتين الاجتماعية والمادية بالسعي في سبيل الرزق، والاشتراك في خوض معامع الحروب، والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة في عهودهم القديمة، ولهم قصص تمثل ذلاقة ألسنتهم، وحكمة منطقهم، ما يضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ، وبلاغة المعنى، وجمال الأسلوب، وحسن التصرف في الإبانة والتعبير.

ولهم قصص تسرد بارع ملحهم ورائع طرفهم، في جواباتهم المسكتة، وتصرفاتهم الحكيمة، وتخلصاتهم اللبقة، مما يدل على حضور الذهن، وسرعه البديهة، وشدة العارضة([[72]](#footnote-72)).

بل نجد في أدبهم وبخاصة فن الشعر قصصا شعرية تحكي أروع المواقف الاجتماعية والبطولية كقصة الحطيئة مع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سجنه فلم يجد بدا من الشعر يستعطف به عمر رضي الله عنه.

وكقصته مع الضيف الطارق والسيد والزوجة مع بنيها في شعبهم إبان فقر وقر، وكموقف تميم بن جميل مع الخليفة العباسي المعتصم وغير ذلك كثير مما حفلت به كتب التراجم والتاريخ والسير. والذي ينبغي أن يقال: إن القصة في الأدب العربي فن تكامل نضجه في عصر النهضة الحديثة، فقد كان إبان عصور الأدب الأولى من العهد الجاهلي إلى العهد الأموي في الأندلس وفي عصور الانحطاط وما بعدها بقليل قد كان فن القصة وليدا لم يستطع السير على قدميه حيث لم يوجد له من هواة القصة من يأخذ بيده ويهذبه ليعطى كغيره من فنون الأدب الأخرى.

ومعلوم إن مقومات هذا اللون من الأدب أعني فن القصة – لا يتم عطاؤه بواسطة الأديب الكاتب المتأثر به، بل لا بد من مراعاة جميع مقومات هذا اللون الأدبي ومن حيث عامل البيئة وما يجري فيها من أحداث على مسرح الحياة تكون موضوع عطاء لهذا الأدب، ومن حيث طريقة الاختيار في الشخصيات القصصية مراعيا في ذلك قرب هؤلاء الأشخاص المخبرين من أحداث القصة المكتوبة تفاعلا وواقعيا وتأثرا أسطوريا إن صحت العبارة – ولا بد من مراعاة تقبل المتلقين لموضوع ومغزى وأهداف القصة – التي ينشؤها الأديب بالإضافة إلى مراعاة الأسلوب القصصي الذي تتطلبه القصة كأسلوب الحوار، وتغاير العبارات بين الطول والقصر، وتوالي أسلوب العرض والتخصيص وبروز علامات الاستفهام التي تثير الدهشة والغرابة والتعجب تارة وتثير التساؤل الذي يحلق بخيال المتلقي في آفاق بعيدة بحثا عن الحل لعقدة القصة تارة أخرى.

هذا بالإضافة إلى تعمد الكاتب القصصي أسلوب الإثارة والشد والتشويق وقدرته على طريقة البدء والختام، ولقد أبدع أدباء العصر الحديث في الفن القصصي حتى كاد أن يفوق هذا الفن غيره من فنون الأدب كفن الشعر والرسم والموسيقى، ولا أرى ما يدعو إلى ذكر أسباب هذه الطفرة العارمة لفن القصة فلذلك موضعه في حديث أخر ولا أرى ما يدعوا إلى عد وحصر القصص والقصاصين في كل لون من ألوان موضوعات القصة وأنواعها، لأننا بصدد الوقوف على القصة في الأدب الإسلامي أين تكون؟ وما مدى تأثيرها في شيء اسمها الأدب؟ وما مدى تفاعل القصة الإسلامية مع البيئات الإسلامية وغيرها من البيئات غير الإسلامية؟ وهل استطاع هذا اللون من ألوان الأدب الإسلامي أن يقف مع فنون الأدب الأخرى كالشعر، وأين المسرح الإسلامي؟ وهل استطاع فن القصة أن يقف على خشبة المسرح الإسلامي ليمد المتلقين بما يؤثر ويغني ويرشد؟ تساؤلات كلها محط نظر وبحث ووقوف واستقصاء.

حقا لقد برز في أواخر العشرينيات المنصرمة كتاب وأدباء ومفكرون استطاعوا أن يثيروا هذا اللون الأدبي الإسلامي، وأن يخرجوه للمتلقين فنا رائعا جميلا مؤثرا، ومن فرسان الكلام في فن القصة الإسلامية المعاصرة عبدالحميد جودة السحار في قصصه الإسلامية، ونجيب الكيلاني في جميع قصصه التي منها: عمالقة الشمال، والنداء الخالد، وليالي تركستان ونابليون في الأزهر ومنها قصصه الإسلامية للأطفال تلك التي جمعها تحت عنوان "جنة الطفل".

وممن كتب في القصة الإسلامية: أحمد بدوي في قصته:"أختاه أيتها الأمل، وقصة "إصلاح" لعزيزة الإبراشي، وقصة الإيمان ذلك السفر القويم الذي يجمع بين دفتيه عددت من الموضوعات ذات الأسلوب القصصي الإسلامي المؤثر الجميل الشيخ نديم الجسر إلى غير ذلك من القصص والموضوعات ذات الأسلوب القصصي كالذي حرره الأديب المسلم سيد قطب في عدد من آثاره الأدبية النافعة، وكالذي كتبه الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في سلسلته القصصية التي منها: كعب بن مالك الصحابي الأديب، وخولة بنت الأزور، وأم عمارة الصحابية الباسلة، ناهيك بما كتب الدكتور عبدالرحمن الباشا في سلسلته: صور من حياة الصحابة وسلسلته: صور من حياة التابعين وما كتبه عدد من الأدباء في إصدارات إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية عن أدب الناشئة وفق موضوعات قصصية إسلامية تعين النشء وتهيئه لمعرفة دينه وأحكامه وما كان للرعيل الأول من المسلمين من خدمات جليلة لنشر الدعوة الإسلامية، وما كان لهم من بطولات ومواقف مشرفة تجاه الإسلام ورسول الإسلام، وما كان للخلفاء الأربعة ومن اقتدى بهم في الهداية والإرشاد ومراعاة أحوال المسلمين، وما كان لأعلام المسلمين عبر عهوده من أياد في الإصلاح والدعوة وإنكار المنكر، والوقوف مع الحق "أولئك الذين اتقوا وأولئك هم المفلحون".

ومن هنا يلحظ كل ناقد منصف أن الأدب العربي عبر تاريخه الطويل لم يخل من الفن القصصي، وأن هذا اللون من الأدب إنما تكامل نضجه وأتت ثمرته في عصر النهضة الحديثة باستثناء القصص النبوي فثمرته سابقة على كل لون أدبي.

والرأي الأقرب إلى الصواب والإنصاف هو ما ساقه الناقد الأدبي المعاصر الدكتور محمود ذهني في كتابه "تذوق الأدب" طرقه ووسائله، فقد أزجى من الآراء النقدية السليمة حول هذه القضية – أعني قضية خلو الأدب العربي القديم من الفن القصصي – أزجى من الآراء حول ذلك ما أقام بالبرهان والدليل التاريخي الموثق من غير ميل عاطفي، وساق من الأمثلة والشواهد ما يحسن أن أورده في هذا المقام فهو رد منصف ورأي مقنع.

تحدث هذا الناقد عن القصة الأدبية تاريخها وخصائصها وأغراضها وأنواعها، وفي معرض حديثه عن هذه القضايا يقول: ليس الفن القصصي حديثا في الأدب العربي كما يقول البعض وبخاصة المستشرقين – أو أنه منقول عن الأدب الغربي الحديث نقل ترجمة واحتذاء كما يقول البعض الأخر – وليس معناه كذلك إن الفن القصصي لم يكن موجودا في الأزمان التي كان الشعر فيها متربعا على عرش الأدب، ولكن الحقيقة أن الفن القصصي كان موجودا دائما مثل ما كان الإنسان موجودا دائما إلى حين، بل إن الفن القصصي كان موجودا قبل الشعر.. لأن الحاجة الوجدانية إليه تسبق الحاجة الوجدانية إلى الشعر من حيث الترتيب الزمني ومن حيث الأهمية والغرض، ونستطيع أن نلحظ هذا السبق إذا ما نظرنا إلى الطفل الصغير أو إلى أنفسنا حين كنا أطفالا صغارا فمن منا الذي لم تتفتح أذناه – وهو ما زال في المهد صبيا – على أقاصيص أمه وجدته – ويقول علماء الاجتماع والاقتصاد السياسي إن الأمم والحضارات من خلال تأثرها بالدور الأدبي تسير قي تطورها البدائي على هذا النسق وبالذات الدورة التي يسير فيها الإنسان فهي تولد رضيعة – أو بدائية – وتتطور في درجات من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الرجولة، ومنها إلى الشيخوخة والكهولة حتى تبلغ النهاية المحتومة.

وإذا كانت عملية القص تصحب الإنسان منذ ولادته، وتصحب الأمة منذ نشأتها فإن فن القصة موجود في الأمة العربية والإسلامية قدم النشأة الأولى كما هو الحال في أي أمة أخرى لكنها – أي القصة – في نشأتها لم تكن من قبيل الفن القصصي ذي الملامح الفنية المتكاملة.

ثم إن القصص الفني لم يوجد في العالم الغربي إلا بعد القرن الرابع عشر الميلادي – باعتبار أن بدايته – كما يقول النقاد الغربيون أنفسهم هي قصة "جحيم دانتي" في ايطاليا. أو "دون كيشوت" في أسبانيا أو "روبنسون كروز" في انجلترا ثم تطور بعد ذلك في قصص العصر الكلاسيكي التي تمثلها روايات الفروسية في كل من فرنسا على يد "الكساندر دوماس" وانجلترا على يد "سير توماس مالوري".

ويدعي المستشرقون والمحذلقون السائرون في ركاب التبعية الثقافية – يدعون بعد هذا أن الأدب العربي لا يعرف الفن القصصي أو لم يعرفه بعد – لأنه لم يكن فن قصصي قديم – كما يزعم هؤلاء وهؤلاء، أو لأنه عندما اتصل بالثقافات الغربية في أوائل هذا القرن، أو أواخر القرن الماضي انبهر بفنهم القصصي، وأخذ يحاول ترجمته واقتباسه ثم محاكاته وتقليده.

ويقال لهم – جميعا – ردا على ما زعموا – إن هؤلاء الغافلين المتفرنجين الذين تناسوا ماضيهم وتراثهم التليد، والذين كانوا يتباهون بما يلبسون من ثياب انجليزية الصنع، ويتغنون بأسمائها الأعجمية دون أن يفطنوا إلى أن القطن الذي صنعت منه إنما هو من زرع بلادهم وجني أيديهم، وكذلك الحال بالنسبة للقصص الحديث فهو وإن كان صناعة أوربية إلا أن مادته الأولية عربية صميمة، فالأدب العربي لم يكن حافلا بالقصص الفني فحسب، وإنما هو في الحقيقة الأصل والمنبع الذي استقى منه الأدباء الأوربيون الكتابة القصصية.

فالقصص التي اعتبرها نقاد الغرب البدايات الشامخة لأدبهم القصصي قد أعترف المنصفون منهم بأنها متأثرة بقصص عربي سابق لها بمئات السنين.

فجحيم دانتي "مأخوذة من" رسالة الغفران "لأبي العلاء المعري" التي سبقتها بأكثر من خمسمائة عام أو أنها هي.. وقد رجح الدارسون اطلاع دانتي عليها، وقصة "دون كيشوت" لمؤلفها "ميجيل سيرفانتس" الأسباني التي كتبها عقب نزوح العرب من الأندلس "اسبانيا" مباشرة تكاد تكون تأثرا فنيا بسيرة عنترة بن شداد الشعبية – التي كانت وما تزال معروفة في أرجاء العالم العربي، بل إن "سيرفانتس" نفسه كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يعترف في مقدمة قصته بأنه اخذ فكرتها وسياق وقائعها من كاتب كافر، وهو يعنى الرمز إلى شخصية عربية مسلمة إقرارا بما كان واقعا من سيادة قصص الفروسية في ذلك الحين على يد العرب".

أما قصة روبنسون كروز التي كتبها "ديفو" الانجليزي فقد قرر النقاد الانجليز أنفسهم أنه أخذها أخذ احتذاء من قصة "حي بن يقظان" التي كتبها الفيلسوف العربي "ابن طفيل" قبل "ديفو" بمئات السنين. وثبت اطلاع "ديفو" عليها.

وسيد الأدلة والبراهين على وجود الفن القصصي في أدب العرب القرآن الكريم، وحديث رسول الله ، وحجة ذلك طبعا اللفظ الشريف الذي ينطق به كتاب الله من قوله تعالى:{أَحْسَنَ الْقَصَصِ}([[73]](#footnote-73)).

ومعلوم أن كتاب الله تعالى وأن كلام رسوله - كما أسلفنا – لا يخضع كل منهما لكلام البشر في معالم الفن القصصي.

والحق أن الفن القصصي في أدب العرب كان معروفا وموجودا قبل الإسلام وبعده، بل إن الفن القصصي بصفة عامة – وفي أوروبا بصفة خاصة – يعتبر عربي الأصل والنشأة أخذ الغربيون ومن تابعهم مبادئه وأشكاله الأولى عن العرب، ثم حوروا فيها وأدخلوا عليها من التجديد والترتيب والتنسيق ما جعلها تبدو وكأنها شيء جديد يخدع السطحيين بجدته ويبهرهم بتنوعه([[74]](#footnote-74)).

والذي ينبغي التنبيه عليه إزاء آراء هؤلاء النقاد أن يقال: ما أجمل آرائهم لو وجهت على نقد هذا اللون الأدبي في تراث العرب الأدبي وفي حاضره فهذه المسألة هي وظيفة النقد الأدبي الهادف المنصف.

وإذا أردنا أن نقف عند هذا اللون القصصي من خلال القصة الإسلامية فسنلقى عددا كبيرا من النصوص القصصية التي عممت الفكرة ونقلت الصورة الأدبية الحية، وبرزت في ثناياها معالم الفنية الأدبية بعامة، ومعالم الفنية الإسلامية بخاصة.

لأن هناك من الفروق الدقيقة بين المعالم الفنية الأدبية عامة والمعالم الفنية الإسلامية خاصة ما يمكن كل أديب وكل باحث أن يدرك العلم الفني الكبير للأدب الإسلامي ومنه القصة الإسلامية، ومن أدق الفروق هنا: أن فريقا من الناس يظن أن الأدب إذا كان جاهليا فاسقا كان عريقا في أدبيته، وإذا كان دينيا لم يستحق أن يدعى أدبا، لأنه خلا من المتعة واللهو.

صحيح أن الأدب قد يكون فاسقا، ولكن الفسق ليس من مقومات الأدب الغائي النبيل الهادف، ولا من خصائصه اللائقة به مهما كثر ذلك في النصوص الأدبية من أي جنس من أجناس الأدب.  
كما أن الأدب قد يغلب عليه طابع الدين، ويصبغه بصبغته، ولكن هذا الطابع لم يفقده القوة والجمال، ولا يمكن أن يرمى الأدب من خلال صبغته الدينية بالعجز والقصور ولا يشعر في الأدب الإسلامي بعجز أو قصور إلا الذين يتصورون في الإسلام نفسه العجز والقصور، والإسلام من هذه الخصوصية ومنهم براء.

وخير مثل في ذلك حياة رسول الله فقد كانت حياة إنسانية حافلة شاملة، وقد صورها لنا أدبه وحسن تصويرها، ولها نماذج كثيرة متنوعة([[75]](#footnote-75)) في دنيا الأجناس الأدبية التي منها القصة الإسلامية فليكن أول نص من نصوصها ما صح عنه في قصة "المسئولية والجزاء" عن سمره بن جندب قال: كان رسول الله إذا صلى صلاة الغداة أقبل علينا بوجهه فقال:"هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا: فقلنا: لا قال: لكن أنا رأيت رجلين أتياني فـأخذا بيدي فأخرجاني إلى أرض فضاء أو أرض مستوية فمرا بي على رجل، ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد فيدخله في شدقيه حتى يبلغ قفاه ثم يخرجه فيدخله في الشق الأخر ويلتئم هذا الشق فهو يفعل ذلك به، قلت ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقت معهما فإذا رجل مستلق على قفاه، ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه فيتدهده الحجر فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان فيصنع ذلك، فقلت ما هذا قالا: انطلق فانطلقت معهما فإذا بيت مبنى على بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت ما هذا. قالا: انطلق فانطلقت معهما، فإذا نهر من دم فيه رجل وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا دنا ليخرج رمى فيه حجرا فرجع إلى مكانه فهو يفعل ذلك به فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقت فإذا روضة خضراء فإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ في أصلها وحوله صبيان وإذا رجل قريب منه بين يديه نار فهو يحششها ويوقدها فصعدوا بي في الشجرة فأدخلاني دارا لم أر دارا قط أحسن منها فإذا فيها رجال وشيوخ وشباب، وفيها نساء وصبيان فأخرجاني منها فصعدا بي في الشجرة فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل منها، فيها شيوخ وشباب، قلت لهما: أنكما طوفتما بي منذ الليلة فـأخبراني عما رأيت فقالا: أما أنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يـأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم .

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة – قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله : وأولاد المشركين.

وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا تجاوز الله عنهم([[76]](#footnote-76)).

وبعد فما يقول القائل حول هذا النص القصصي الكريم من كلام رسول الله ؟

أيعمد الناظر إلى استجلاء الخصائص الفنية للألفاظ والجمل والتراكيب أم يعمد إلى استجلاء المعاني النبوية الشريفة أم إلى الكلام على أهداف هذه القصة وبيان مغزاها؟ أم إلى الحديث عن الخصائص الفنية التي تتميز بها القصة في الأدب العربي على نحو مما درسه النقاد المعاصرون؟

كحديثهم عن عناصر القصة التي تنبني من الخبر والعقد والحل وكحديثهم عن أبطال القصة ودور كل واحد منهم.

وكحديثهم عن الحبكة ومدى تلاحم بنائها في تصوير الأحداث وتجسيد الأخبار، وبيان أوصاف هذه الحبكة من حبكة متماسكة أو حبكة مفككة، كل تلك الخصائص تتطلب من الناظر تأملا طويلا.

ولنبدأ بخصائص الألفاظ واستجلاء أوصافها ومدى تلاحمها مع الجمل والتراكيب وصياغة الصورة وأداء المعنى.

أما الألفاظ فقد تميزت بالسلاسة والوضوح، وبرئت من الغرابة والخشونة وجاءت كل لفظة مثل أختها حيث لا يحس القارئ بين كل لفظة وأخرى بوصف نشاز يبعد هذه عن تلك، بل جاءت كل لفظة بما يتناسق مع الأسلوب القصصي من حيث العناية بتخير اللفظ المتلائم مع عبارات النص، وهذا هو معنى التناسب الذي هو ضد المغايرة، حتى لتكاد كل لفظة أن تحمل معناها وتعين ما بعدها وما قبلها في حسن العرض وسرد الحوادث والأخبار بطريقة لا تمل.

ومن أبرز خصائص الألفاظ في هذا النص القصصي الكريم التناسب مع جو الحدث والخبر حيث ورود كل منهما على هيئة متميزة على حسب الغاية من إيراده.

ولذلك يجد الناظر في سياق كل حدث أو كل خبر ما يناسب معناه ومبناه من حيث الجزالة والفخامة أو الرقة والسهولة، فانظر إلى قوله :" فإذا رجل متسلق على قفاه، ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدق بها رأسه.

فلأجل تصوير المشهد من خلال هذا الخبر الذي يشد الذهن إلى معنى القوة والصلابة والغلظة نجد التعبير بما يناسب المقام حيث لفظة مستلق، وقفاه، وفهر، وصخر ويشدخ.

وانظر إلى قوله : حين أورد هذا الخبر الذي يعج مشهده بمعاني الاسترواح النفسي والاطمئنان والهدوء حيث يقول: :"فانطلقت فإذا روضة خضراء فإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان، وإذا رجل قريب منه".. إلى قوله فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا لم آت دارا قط أحسن منها. وهكذا حتى نهاية العرض لهذا الخبر الحافل بالتشويق.

وتلك خصوصية يكاد أن يتسم بها الكلام النبوي جملة وتفصيلا سواء كان كلامه من قبيل القصة أو غيرها من فنون النثر، والفيصل في ذلك حديثه في موضوعات الترغيب والترهيب وذكر الجنة أو ذكر النار، أو تصوير مشاهد القيامة، تلك الدرر النبوية التي يغلب على أسلوبها طابع القصة.

أما المعاني التي زخر بها هذا النص القصصي الفريد، فإنها معاني فريدة من هدي النبوة، فلا غموض ولا ألغاز ولا تعقيد. وإنما هي معاني تجلي الحقيقة تارة بأسلوب حقيقي وأخرى بأسلوب تخيلي حسن من ذلك قوله :"لكن أنا رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى أرض فضاء أو أرض مستوية، فمرا بي على رجل ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد فيدخله في شدقيه فيشقه حتى يبلغ قفاه، ثم يخرجه فيدخله في شقه الأخر، ويلتئم هذا الشق فهو يفعل ذلك به.

هذا العرض الإخباري، قد تجلى معناه بأسلوب الحقيقة حيث لم يعتمد فيه على الأسلوب المجازي من استعارة أو كناية وإنما تلاحقت معانيه وفق مبانيه حيث أسلوب الحقيقة التي استطاع الأسلوب النبوي الفريد أن يصور هذه المعاني ويجليها للناظر وكأنما هو إزاءها حقيقة ماثلة للعيان، من غير استعانة بأسلوب المجاز الذي يتخذه صناع الكلام لإبراز معانيهم الأدبية.

ومن الأسلوب التخيلي الحسن الذي تم بواسطته عدد من المعاني السامية الشريفة فيما ترمي إليه هذه القصة قوله "فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه".

فالمتأمل يرى في كلمتي "يأخذ ويرفض استعارة لطيفة حيث شبه حال من يقرع أذنه القرآن الكريم بزواجره ومواعظه وأحكامه بحال أخذ الشيء لما يرى فيه من المنفعة، ولكن هذا الأخذ لا يلبث أن يترك ما أخذ فيرد ما ينفعه.  
وكذلك الشأن في لفظة "يرفض" فقد شبه حال من يتجاوز أحكام القرآن الكريم ولا ينتفع بما فيه من الهدي بحال من يرفض الشيء النافع لقلة معرفته به، أو لعدم تأثيره في شأن معاشه ومعاده.

ومعلوم أن النبي الكريم في كلامه كله لا يعمد إلى مثل هذه الأساليب المجازية تصيدا وتكلفا، وإنما تجرى على لسانه عفو الخاطر، ولذلك جاء كلامه آية في الإبداع وغاية في الفصاحة والبلاغة حتى لقد نطق بكلام قصير وطويل على حسب الظروف والأحوال وجاء ما نطق به نسيج وحده لم يسبقه إليه أحد، ولم يستطع أن يجاريه فيه أحد، وحسبنا في ذلك ما جمعه الشريف الرضي في "المجازات النبوية" وما أومأ إليه الجاحظ في البيان والتبيين".

وإذا كان للأسلوب القصصي عدد من السمات والخصائص الفنية التي قد نشط لدراستها عدد من نقاد الأدب كحديثهم عن أغراض القصة وأهدافها وما ترمي إليه، وكحديثهم عن الحبكة ومفهومها وأنواعها وتأثيرها في تلاحم أجزاء القصة وموضوعاتها.

إذا كانت هذه الخصائص مما يمنح النص القصصي القوة والوضوح والإمتاع والتأثير من توافر هذه الخصائص فإن كلام رسول الله قد أثنى عليها قبل درس هؤلاء النقاد وقبل بسط آرائهم، يقول الدكتور "محمد يوسف نجم:

"إن أهم سؤال يطرحه القارئ على نفسه بعد قراءة القصة. هو: هل تركت في النفس أثرا لا ينسى؟ وهل هذا الأثر الذي تركته، إن كانت قد فعلت ذلك، ناتج عن سلسلة من الحوادث أو عن شخصية من الشخصيات، أو عن فكرة من الفكر؟

هذا الأثر هو العنصر السائد في القصة، وهو الطاقة المحركة فيها والتي تستطيع أن تجعل القصة تحيا أبد الدهر وتؤثر كلما قرأها قارئ أو شاهد أدوارها ممثلة حتى ليمكنه أن يرصد مظاهر هذه الحياة فيميز بين الشجرة المترعرعة الناضرة، والشجرة الذابلة الجافة.

والقاص مبتدئ مبدع، تزدحم الحوادث والشخصيات والأفكار في رأسه، ولا يسعه إلا أن ينفخ فيها الروح لتتحدث بنعمة الحياة.

وسيادة عنصر ما في القصة، تظهر للقارئ في شكل من الأشكال التالية:

* الشخصية.
* سيادة البيئة أو الجو.
* سيادة الفكرة.

ولابد أن يخرج القارئ نص القصة الناجحة، وقد غلب على نفسه عنصر من هذه العناصر، أما إذا خرج منها بمزيج مختلط من الحوادث والشخصيات والأفكار، فمعنى ذلك أن الكاتب أخفق إلا في إبراز أحد هذه العناصر وفي تغليبه على غيره، ولكنه أي القارئ إذا أحس بأنه خرج من القصة وهو يتذكر شيئا ملك عليه نفسه من جميع أقطارها واستأثر بإحساسه وتفكيره وأسر لبه وشغل جو القصة العام، وانتظم حوادثها وشخصياتها ومشاهدها فمعنى ذلك أن القاص استطاع أن يرسم لنا الصورة المجسدة لأفكار قصته ومعانيها ومغزاها وأنه استطاع أن يبرزها بما له من قدرة على التعبير المصور المحكم واختار خطوطها وألوانها من زحمة الحوادث والشخصيات([[77]](#footnote-77)).

إذا كانت هذه هي الرؤية الأدبية التي يراها النقاد محققة أهداف القصة وغاياتها من خلال عناصرها المتمثلة في:

* التأثير.
* والشخصيات.
* وسيادة البيئة والجو العام.
* وسيادة الفكرة.

إذا كان الأمر كذلك فأين تقع هذه القصة النبوية الشريفة؟ وهل يمكن أن نطلق عليها الحكم بالجودة من خلال توافر هذه العناصر؟

الحق أن الأدب النبوي الشريف بما فيه القصة الإسلامية أدب حي خالد مؤثر أبد الدهر قد ضمن لنفسه الخلود ليس من خلال هذه العناصر أو بعضها فحسب، وإنما من خلال توافر المعارف الربانية التي زود الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم.

لأن قصصه الشريف ليس من قبيل الأفكار العائمة والعبارات الهائمة التي يسلط بها الأدباء أفكارهم ونزعات أنفسهم في قوالب من صناعة الكلام، وإنما الغاية من القصص النبوي فوق ما له من الإبداع والإمتاع حمل النفس على إتباع الحق والتزام الخلق القويم.

ومن أجل الغايات التي يسمو إليها القصص النبوي سلوك أنجع الطرق في التربية والتعليم امتثالا وتطبيقا لأسلوب القصص القرآني الذي الغاية منه العظة والاعتبار والتوجيه والتعليم.

ومن أسمى الغايات التي يهدف إليها القصص النبوي تربية الخوف والخشية في باطن النفس البشرية المسلمة من خلال أسلوب الترغيب والترهيب تلك الخصوصية التي تميزت بها هذه القصة النبوية الشريفة.

وهذه الخصوصية "نابعة أساسا مما ركب في النفس الإنسانية من طبيعة الخوف والرجاء المتقابلتين في هذه النفس من ناحية، والمتجاورتين فيها من ناحية أخرى، والخوف والرجاء قوتان مختلطتان في أعماق الكائن البشري، بحيث يوجهان اتجاهه في الحياة، يحددان أهدافه وسلوكه، كما يحددان – أيضا – أفكاره ومشاعره، إذ إنه سيختار منهج حياته منطلقا في ذلك من خوفه ورجائه([[78]](#footnote-78)).

وهذه القصة النبوية واحدة من القصص النبوي الذي سار في هذا الاتجاه أعني أسلوب الترغيب والترهيب فهناك قصص عنيت بتصوير عذاب القبر، وقصص عنيت بتصوير مشاهد القيامة، وقصص تتحدث عن نعيم الجنة وأخرى عن عذاب الله وسخطه ورضاه.

وإذا كان من أبرز خصائص القصة الممتعة النافعة تجسيد معنى الترغيب والترهيب لتحقيق القيم الإنسانية الرفيعة من خلال عامل الخوف والرجاء الكامنين في أعماق النفس البشرية، ولا يتم ذلك إلا بتنويع العبارات في الأسلوب القصصي المتمثل في العرض والتحضيض والاستفهام والنهي وأسلوب الحوار والتكرار فإن هذه الخصائص قد تحققت في صياغة هذه القصة النبوية فمن الاستفهام قوله صلى الله عليه وسلم:

"قلت ما هذا؟"

"فقلت ما هذا؟"  
وتتكرر هذه النقلة بواسطة هذا الاستفهام عبر كل فكرة من أفكار النص ومن النفي قوله صلى الله عليه وسلم:"فأدخلاني دارا لم آت قط دارا أحسن منها".

ومن الطلب قوله صلى الله عليه وسلم:"فأخبراني عما رأيت".

ومن أسلوب الحوار قوله صلى الله عليه وسلم:

قلت ما هذا قالوا انطلق. وهكذا حتى نهاية عرض أفكار هذه القصة الشريفة.

وإذا كان من أبرز عناصر القصة المؤثرة ما يسميه النقاد بالحبكة ذلك العنصر الذي يعني "سلسلة الحوادث التي تجرى فيها القصة مرتبطة – عادة – برباط السببية. ولا تفصل عن الشخصيات إلا، مصطنعا مؤقتا. وذلك لتسهيل الدراسة.. ويجب أن ينظر الناقد – أولا – إلى المواد الأولية التي تستمد منها الحبكة وإلى قيمة هذه المواد، لأن لها أثرا قويا في استجلاء المعاني والغايات التي ترسمها الحبكة من خلال الموضوعات المتباينة التي يطرحها القاص ويضع لها الأساليب التي تعالجها بطريقة ناجحة فلا يعنى القاص – مثلا – بما يطفو على سطح الحياة من زبد الحوادث – والشخصيات، وإنما يهتم بما يتعمق في استثارة العواطف، ويستبطن ألوان المشكلات.. فإن مما يضمن للنص الأدبي الخلود والتأثير وبخاصة – فن القصة أن يكون على اتصال وثيق بالحقائق التي تجعل الحياة الإنسانية أكثر عمقا وأوسع شمولا([[79]](#footnote-79))".

وإذا تأملنا في القصة النبوية التي بين أيدينا من حيث توافر عنصر الحبكة على نحو مما أشار إليه النقاد فإن هذه القصة الشريفة قد بلغت الذروة من حيث تكامل حبكتها، وتكامل المواد التي بنيت منها هذه الحبكة. فالشخصيات التي أدت أدوار الحوادث في هذه القصة شخصيات من عالم آخر أية في صدق الحركة والكلمة والفعل والامتثال وسلامة أداء الدور القصصي لكل حدث مع كل شخصية يكمن في صدق ما ترمى إليه القصة من معان وقيم ذلك لأنها من نسيج نبي لا ينطق عن الهوى.

وثمة خصوصية أخرى قد عنى بها النقد الأدبي الحديث حول الحبكة إذ جعلها "نوعين متميزين: هما القصة ذات الحبكة المفككة، والقصة ذات الحبكة العضوية المتماسكة.

ويعنينا من هذين النوعين النوع الأخير الحبكة المتماسكة لصدقها على القصص النبوي بعامة وعلى هذه القصة الشريفة بخاصة لأنها – أعني الحبكة المتماسكة – تقوم على حوادث مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض، وتسير في خط مستقيم حتى تبلغ مستقرها.. متحركة حركه طبيعية خالية من الصنعة والافتعال، مركبة بطريقة مقبولة مقنعة لا يشعر القارئ فيها بآلية العمل القصصي([[80]](#footnote-80))".

ونسوق هذه الآراء النقدية حول حبكة القصة الأدبية، ولا نعنى بإيرادها التعرف على مدى تميز القصة النبوية بها، لأن الكلام النبوي الشريف في مبناه ومعناه خال من عيوب النقد وتوجيهاته على حسب أراء النقاد التي لا يحتاج الكلام النبوي إليها صحة وتقويما.

والمعروف قديما وحديثا أن الأدب النبوي قد أثر في جميع الأجناس الأدبية حتى كانت اللفظة الواحدة والجملة والتركيب من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اقتبس شيء من ذلك يعد واسطة العقد في كلام الأدباء.

وهذا يعني أننا أردنا بإيراد هذه الآراء النقدية حول القصة والحبكة بيان توافر خصائص الأسلوب القصصي في القصة النبوية على الرغم من عدم خضوعها لتهويمات القصاصين وآرائهم وأخيلتهم. فهي معدن من لون خاص يكفي أنه كلام رسول الله .

ولا يمنع أن نقف على شيء من خصائص الحبكة في هذه القصة النبوية الشريفة التي لم يزل الحديث متواصلا عنها وعن خصائصها.

ولا تعني الحبكة في القصة اعتماد القاص فيها على القدرة التعبيرية المتمثلة في إحكام الربط بين الشخصيات والحوادث التي يسوقها فحسب بل هناك القدرة على استخدام الأسلوب القصصي الفريد من خلال الألفاظ المفردة والجمل والتراكيب والمعاني وخصائص كل نوع من هذه الجزئيات ولا يتحقق مثل هذا العمل الأدبي إلا في القصة النبوية، لأنها تحفل بعروض حية لكثير من المشاهد بحيث تبدو وكأنها تمثل أمام القارئ والناظر واقعا ملموسا تتملاه العين مع الحس والخيال.

ومثل ذلك ما جرى في عرض قصته هذه حيث تحدثت عن المسئولية والجزاء ورسمت بالكلمات صورا عديدة للمشاهد التي رآها صلى الله عليه وسلم، وأخذ يستعرض المناظر الغريبة التي وقف عليها محاولا نقلها إلى أصحابه – رضوان الله عليهم بالصورة التي رآها عليها([[81]](#footnote-81))".

ويكفي في سلامة نقل الصورة والتعبير عنها ذلك الأسلوب الحواري المكرر، وذلك الأسلوب الفجائي من خلال قوله صلى الله عليه وسلم قالا.. انطلق. فانطلقت فإذا بكذا وكذا...

ثم ذلك الأسلوب المتنقل مرة بواسطة الجملة الاسمية.. ومرة بواسطة الجملية الفعلية، وكل ذلك بأسلوب متقن خال من الصنعة والتكلف. قد أديت بواسطته المعاني وفق الطريق الذي يعبر عنه النقاد بجوهر الأدب، أو مادته اللغوية التي تتمثل في:

* الفكرة.
* العاطفة.
* الخيال.
* الأسلوب.

ولو أردنا أن نصل هذه الجزئيات بمادة هذه القصة النبوية الفريدة لتطلبت كل جزئية حديثا مجملا ومفصلا يمكن أن يشكل بحثا أدبيا فنيا مستقلا قائما بذاته.

فمن الأجود أن تصل جزئية الخيال بمادة هذه القصة النبوية لأن الخيال عنصر هام من عناصر تكوين اللون القصصي. وله أثره البعيد في جودة النص ومدى تأثيره وإمتاعه.

ومعلوم أن الأدباء يتباينون في "في حظهم من قوة الخيال ونصيبهم في طريقة النفاذ إلى ما وراء الواقع القريب الذي يجسد الواقع البعيد السابح في آفاق الخيال الغائص في أعماقه. ويتباينون في استكناه المشابهات والمفارقات بين الأشياء والتعلق بالمجهول الذي يعيش وراء الحس، والقدرة على تلوين هذا المجهول والاستمداد منه، واقتباس الظلال من أطرافه.

ولذلك نجد من الأدباء من هو قوي النفاذ رحب المدى بعيد مهوى التخيل، ومنهم ضيق الأفق محدود الساحة... ومنهم من يستطيع أن يلف المنطقة الواسعة بالنظرة الواسعة ويجاوزها إلى ما هو أرحب منها، ومنهم من يقصر جهده على الحيز الضيق في نظرة عميقة. ليس لها جوانب تصلها بنظرات أخرى يتفرع عنها غطاء جديد لمعنى جديد ونمط جديد، وهم في ذلك كله متأثرون بما يرون في بيئاتهم التي تفتحت في نورها أعينهم وما من شك أن البيئة لها أكبر التأثير في تنمية الخيال وإغنائه([[82]](#footnote-82))".

وإذا أردنا أن ندرس هذا العنصر الأدبي – أعني عنصر الخيال – وأردنا تطبيق ما أورده النقاد حوله متخذين نص هذه القصة النبوية مقياسا لصحة آرائهم، فإن هذا الصنيع قد يودي بصاحبه إلى مزالق يضل في متاهاتها عن الصواب لأننا إزاء كلام يسمو على كلام البشر ولا يخضع لتهويمات الأدباء وأخيلتهم.

وعلى الرغم من ذلك فإن قصة المسئولية والجزاء ذلك النص الذي بين أيدينا قد سبح في آفاق رحبة من الخيال الواسع الخصب المجنح. فقد انتقل بأحداث هذه القصة وشخصياتها من حقيقة الأرض إلى حقيقة السماء وصور جميع مشاهدها بريشة الأديب المبدع حتى لكأن الناظر والقارئ يعايش هذه المشاهد ويحسها متحركة حية تخالج روحه وتمس شغاف قلبه وتذهب بنفسه كل مذهب.

ولكنه خيال عبقري مصون من فلتات النفس وتكلف الطبع والمجازات اللغوية القابعة في أساليب المبالغة والإيغال والغلو.

ولذلك جاء كل مشهد وكل حدث وكل فكرة في إطار هذه القصة مفصلا على حسب ما يستوعبه ذهن السامع والقارئ من غير إيجاز مخل أو إسهاب ممل أو إفراط في نقل الصورة الأدبية بواسطة الألفاظ التي تسم المتكلم بها بشيء من الغموض أو التعقيد أو التكلف لأن الغاية الأولى من الأدب النبوي في جميع أجناسه الإفهام والترغيب والترهيب وبسط محاسن الإسلام والرقي بالأديب والأدب إلى معاني الكمال وتنشدان الفضيلة في كل شيء.

وإذا كان ما وقفنا عليه من خصائص إنما تحققت من خلال نص نبوي واحد من القصص الرائع الذي زخر به الأدب النبوي فإن في المضي إلى الاستشهاد بنصوص أخرى ما يغري بالكثرة والوقوف على بدائع أخرى من قصصه صلى الله عليه وسلم.

ومن جملة هذه البدائع قصة:"الأبرص والأعمى والأقرع من بني إسرائيل" فقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك قال: لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس. قال: فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا فقال: أي المال أحب إليك قال: الإبل – أو قال: البقر هو شك في ذلك أن البرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الأخر البقر فأعطى ناقة عشراء فقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن ويذهب عني هذا قد قذرني الناس قال: فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا قال: فأي المال أحب إليك قال البقر قال: فأعطاه بقرة حاملا. قال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك: قال: يرد الله لي بصري فأبصر به الناس. قال فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك. قال: الغنم فأعطاه شاة والدا.

فأنتج هذان وولد هذا. فكان لهذا واد من إبل، وهذا واد من بقر، وهذا واد من الغنم ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال:

رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري فقال له:

إن الحقوق كثيرة – فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله فقال: لقد ورثت هذا كابرا عن كابر. فقال إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته. فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته. فقال:

رجل مسكين وابن سبيل تقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال:

قد كنت أعمى فرد الله بصري، فقيرا فقد أغناني. فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك([[83]](#footnote-83))".

إن هذا النص القصصي من أروع الأساليب الأدبية الوصفية النبيلة الهادفة حيث جمع في إطارها – أعنى النص كل مقومات الأدب الغائي إذ يلحظ الناظر في جزئيات هذا النص بروز المنهج التربوي الذي ترمى إليه القصة الأدبية إذا هي اعتمدت على الحوار والوصف وتصوير المشاهد، وخصب الخيال ونبل العاطفة متصلة بجوانب الحياة الفاضلة، وما ينبغي أن تكون عليه.

وهذه الخصائص سنتبينها في ثنايا هذه القصة النبوية الكريمة، إن الهيكل العام لبناء القصص النبوي الذي يتألف من:

1. بداية مسبوقة بمقدمات على نمط معين يتجانس مع موضوعات كل قصة على حسب الظروف والأحوال التي تساق من خلالها القصة.
2. ويلي البداية المسبوقة بمقدمة تمهيد يختلف وموضوعات القصة أيضا. فهناك: تمهيد تقريري، وتمهيد يحدد الموقف، وتمهيد يلم شتات الأحداث حتى يصورها في مشهد حدث واحد.
3. ثم أفكار وموضوعات منسقة تسبق كل فكرة وكل موضوع بحديث يقصر أو يطول على حسب ما يهدف إليه الموضوع، وما تهدف إليه الفكرة.
4. إطار منسق منتظم من ألفاظ متباينة تارة ومتجانسة أخرى على حسب ما يتضمنه المعنى ويرمي إليه.

فلمعنى التقرير ألفاظ غاية في البساطة والوضوح ولمعنى التأكيد وصيغ الإنكار ألفاظ في الذروة من الجزالة والفخامة والقوة، ولمعنى الترغيب والترهيب ألفاظ متباينة نجدها مع الترغيب تجري في سلاسة ويسر، ومع الترهيب تجري في إطار متقن قوي محكم تشى ألفاظه بمبدأ القوة والعظمة والجزالة والفخامة تجانسا مع معنى الترهيب إذ يصدر عن قوة في الأخذ والجزاء.

وإذا تأملنا في ألوان الهيكل من خلال هذه الجزئيات فسوف نجد تحت البدايات أنواعا فبداية – مثلا – مسبوقة بمقدمات أخر. وسنجد ألوانا من هذه البدايات، فبداية – مثلا – مسبوقة بمقدمات تمهيدية، وبداية مسبوقة بالكلام على الحدث مباشرة.

فالمقدمات المسبوقة بالتمهيد تتخذ ألوانا كثيرة.

* كالتمهيد بالتقرير.
* والتمهيد بتحديد الموقف.
* والتمهيد الحواري.
* والتمهيد بالسؤال من الرسول الكريم يلقيه على الصحابة رضي الله عنهم.
* والتمهيد بسؤال من الصحابة أنفسهم.
* وتمهيد باستثارة التساؤل.
* وتمهيد بالسؤال ثم التقرير.
* وتمهيد بإثارة قضية([[84]](#footnote-84))".

وكل هذه التمهيدات من أبرز خصائصها عنصر التشويق الذي كثيرا ما يعمد إليه صلى الله عليه وسلم لجلب انتباه السامع وشده.

فمن الصف الأول الذي هو: التمهيد بالتقرير ما نجده في هذه القصة في الحديث عن الثلاثة من بني إسرائيل.

فأولا نجد السياق إزاء مقدمة وجيزة تمهد للقصة بدءا من قوله صلى الله عليه وسلم:"إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال:

فقد تقرر أن هؤلاء المبتلين إنما هم من بني إسرائيل، وتقرر أن عددهم ثلاثة، وتقرر أن كل واحد منهم مصاب بنوع معين من أنواع البلوى.

وبعد لفظة "فقال له" يبدأ عرض أحداث القصة متخذاً أنماطاً متباينة الطعوم: فأسلوب تقريري، وأسلوب حواري، وأسلوب وصفي ثم نتائج ينتهي بها كل حدث على حدة.

والغرض من هذا التباين والتنويع في الأسلوب الاهتمام بتحقق عنصر التشويق مما يحفز المستمع على الترقب والمتابعة. ويتمثل هذا التشويق في عرض الجزئيات التالية المتمثلة في العبارات النبوية من قوله صلى الله عليه وسلم:

1. "إن ثلاثة في بني إسرائيل فهذه الكلمات تثير الاهتمام، لأنها بداية قصة تجرى أحداثها في بني إسرائيل، وهم قوم كثيرا ما تنقل عنهم الأحداث العجيبة التي تحمل على الاهتمام والتطلع لما سيذكر عنهم.
2. وصف شخصيات القصة بإيراد ذكرها في المقدمة بوصف كل شخصية على حدة فهناك: أبرص وأقرع وأعمى.
3. تقرير أن الله أراد أن يبتليهم وهنا يترتب على كل حدث نتيجة تظل النفس تذهب فيها كل مذهب حتى يأتي القول الفصل الذي ينهي كل حدث ببلواه ونتيجته.

أما بقية أنواع المقدمات فإنها تصدق على ألوان كثيرة أخرى من قصصه صلى الله عليه وسلم:

فمن التمهيد بتحديد الموقف "قصة المذنب والعابد، وقصة "الملك والساحر" وقصة "الرضيع والأم" وقصة "الكفل من بني إسرائيل" وقصة "صوت في سحابة" وقصة "المعراج".... الخ.

ومن المقدمات بالتمهيد الحواري:

قصة الأسئلة الثلاثة التي مفادها ما رواه أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل نخلا لبني النجار فسمع صوتا ففزع، فقال: من أصحاب هذه القبور؟ فقالوا: يا نبي الله ناس ماتوا في الجاهلية قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة الدجال. قالوا. وما ذاك يا رسول الله؟

قال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك.. الخ.

ومثل ذلك: قصة الصراط.

ومن التمهيد بالسؤال ما مر معنا في قصة المسؤولية والجزاء مما رواه سمرة ابن جندب([[85]](#footnote-85)).

ومن التمهيد باستثارة التساؤل قصة أهل الغار والصخرة. وهكذا تجرى هذه المقدمات في أنواع كثيرة من القصص النبوي ليس هذا مكان سردها كلها والحديث عنها.

أما بناء المعاني وصياغة الفكرة وتجسيد الصورة فإن أول ما يلحظه الناظر في قصص الرسول الكريم أن معانيها تتضمن معاني شريفة سامية من أهمها وكلها غاية في الأهمية – ما يلي:

1. الدعوة إلى الإيمان بالله جل وعلا.
2. بسط محاسن الشريعة الإسلامية وشرح أحكامها.
3. الترغيب والترهيب.
4. التربية والتعليم والتوجيه السليم.
5. تربية الخلق الإسلامي في النفس المسلم، وهذه المعاني الشريفة من أروع المعاني التي تخللت هذه القصة: قصة الثلاثة من بني إسرائيل.

فمن معاني ترسيخ الإيمان بالله في نفس البشرية المسلمة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصة:

"إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فهنا ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداث هذه القصة ومجرياتها ونتائجها وما ترتب عليها من فعل وجزاء ربط ذلك كله بالله سبحانه وتعالى، وفي هذا الربط تعليم يربي الإيمان في النفس إنه إيمان بالله خالق كل شيء ومدبر كل شيء.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأبرص: ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله.. وقوله في شأن الأبرص والأقرع معا: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت عليه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأعمى:

قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيرا فأغناني فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.. إلى قوله صلى الله عليه وسلم:

فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك.

وهكذا تنتقل هذه العبارات عبر ثنايا هذه القصة وكلها معان تدعو إلى الإيمان بالله من خلال تفويض الأشياء كلها إليه سبحانه وتعالى وأنه وحده هو النافع والضار.

وعن معنى بسط محاسن الشريعة الإسلامية نجد القصص النبوي سواء في هذه القصة أو في غيرها من القصص التي ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد خصوصية الالتزام بارزة في معالم كل قصة بما يحقق الغرض الديني "فتبث التوجيهات الدينية في سياق القصة الواحدة على أكثر من صورة حتى تؤدى أكثر من غرض في وقت واحد، وذلك لأنها أغراض ذات معان متداخلة ومن أكثرها ما يكون في معنى الدعوة والتربية والتسرية([[86]](#footnote-86))".

وبسط محاسن الشريعة الإسلامية ذلك المعنى النبيل الغائي الذي يحدده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصة:

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري.. إلى قوله صلى الله عليه وسلم أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري.

فهذا القول النبوي الشريف بسط لمحاسن الشريعة الإسلامية لأنه حث وتوجيه على الإنفاق وإخراج الزكاة والصدقة في وجوه الخير مما فاض من المال. والصدقة والزكاة من أهم أركان الإسلام الخمسة في حياة المسلم الدنيا والآخرة فهما من أكبر محاسن الشريعة الإسلامية في تحقيق التكافل الاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات لتسعد البشرية كلها في ظل نظام عادل يحفظ الحقوق من خلال هذين المصدرين الزكاة والصدقة.

وكذلك الشأن في حال الأقرع والأعمى ففي طلب كل منهما ومـسألته معنى بسط محاسن الشريعة لتحقيق الصدقة والإنفاق.

وعن معنى الترهيب والترغيب تتوالى عبارات التوبيخ والتقريع بجانب عبارات الشكر على الإحسان. فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأبرص والأقرع.

"إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت" ومن الثاني قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الأعمى:

فخذ ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.

وعن معنى التربية والتعليم نجد طريقة العرض تبدأ بهذا التقرير الإخباري من قوله صلى الله عليه وسلم: إن ثلاثة في بني إسرائيل إلى آخر هذا العنصر الرئيس الذي اعتمدت عليه القصة في عرض أحداثها فإنه عرض ذو تعليم وتوجيه إلى ما يجب أن يكون عليه المسلم امتثالاً لأوامر الله وشكراً على ما أولى.

وعن معنى تربية المسلم على الخلق القويم من خلال موضوعات هذه القصة نلمح صدق المشاعر والأحاسيس بما يجب أن يكون عليه المسئول والمحاسب فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال مسؤوليته الكبرى أن يوجه الصحابة الكرام ويوجه الأمة الإسلامية كلها من خلال ما ساقه من موضوعات هذه القصة فهي دليل على عظم المسؤولية تجاه المال والنفس والخلق. ومن هنا يربي الرسول الكريم في نفس كل مسلم معنى الخلق الإسلامي الرفيع بوصف الفرد المسلم مسئولا ومحاسبا معا. بحيث يحس الفرد بقيمة فرديته، ويحس المجتمع بقيمة وسطه الاجتماعي. فكلاهما وحدة لا تتجزأ في سبيل إثراء الحياة الإسلامية بالخير والاستقامة على الطريقة المثلى التي يسعد الناس بها في دنياهم وآخرتهم.

فهي مقياس خلقي رفيع لا يستقيم عليه إلا أولوا العزم من المسلمين الذين خلقهم خلق الإسلام.

وإذا كان ثمة خصائص فنية أخرى مما يلح على توافره في القصة الأدبية نقاد الأدب ودارسوه كوقفتهم عند البناء الشعوري: العاطفة والخيال والفكرة والصورة الأدبية فإن القصص النبوي الكريم عامر بهذه الخصائص الفنية.

فالعاطفة النبوية النابعة من نفس محمد الزكية وروحه الطاهرة وإحساسه العميق عاطفة جياشة صادقة مشبوبة لا يثيرها إلا حب الخير وعامل الشفقة على الأمة الإسلامية بل على الإنسانية جمعاء عاطفة تأخذ بمجامع القلوب المؤمنة الحية وتأسر النفوس المنقادة بحب الخير والعطاء الإنساني من خلال الكلمة الأدبية المعبرة، وبخاصة كلمات القصة النبوية، فهي قطعة نثرية بديعة "تحوي رائع التجارب في موضوعات متنوعة تعطي ذخيرة حية تمد الأدب والأدباء وتفتح لهم آفاقاً واسعة بعيدة المدى في أعماق التاريخ والحضارة والوجود الإنساني والكوني في الماضي والمستقبل، وتتيح لهم بكل ذلك أن يضيفوا إلى تجاربهم تجارب أخرى مما يعطي الأعمال الأدبية والقصصية بشكل خاص([[87]](#footnote-87))" لونا فنيا بديعا في الإطار والمضمون. ولا غرو في ذلك لأنه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو إلهام وإبداع لا يخلولق أبد الدهر.

وإذا تأمل الناظر في عنصر الخيال في الأدب النبوي الخالد فإنه سيجد من الخصائص الفنية لهذا العنصر مثل ما تحمله العاطفة من حيث العمق والبعد والتحليق في آفاق الكلمة الأدبية المعبرة من غير جنوح إلى التهويمات والتخيلات الكاذبة التي يمليها تكلف الصنعة من خلال زخرف القول والبعد في أغوار المدلول المعنوي للفظة باستعمال شواذ اللغة الداعية إلى التقعير والتكلف.

ولذلك قل في كلامه صلى الله عليه وسلم استعمال اللون المجازي ما لم تدع الحاجة إليه.

ومن هنا فقد عريت قصته صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة من بني إسرائيل قد عريت من المجازات اللفظية التي كثيرا ما يجنح إليها الأدباء للاستعانة بها في رسم الصورة الأدبية حتى ليكاد الكثير منهم أن يغرق في هذا الأسلوب إلى أن يفضى بعبارته إلى التعمية والألغاز وتلك عاقبة التفريط.

بل أن الخيال في القصة النبوية كثيرا ما يتحقق على الصفة التي ترضى الذوق الأدبي وتحلق بالنفس الإنسانية من خلال ما يتسع له المعنى النبوي من غير أن يكون للألفاظ تأثير في رسم أبعاد هذا الخيال كما في هذه القصة: قصة الثلاثة من بني إسرائيل. ويكاد هذا الأسلوب البديع أن يكون مما أختص به كلامه صلى الله عليه وسلم.

أما الفكرة: فحسب الناظر أن يتملاها في كل عبارة من كلامه سواء في الحديث المروى بالسند عن حكم من الأحكام، أو في الخطبة، أو في الرسالة أو في العهود فإنها تتجلى للناظر في سهولة ويسر حتى يدرك الغرض من الكلام النبوي ويعرف المراد منه في أول لفظه أو جملة أو عبارة من النص الذي يقرأه.

وأما الصورة الأدبية في كلامه صلى الله عليه وسلم فإنها الصورة ذات الأبعاد التي يحدد إطارها ويحكمها إلهام النبوة وتفجر البلاغة والفصاحة إطنابا وإيجازا وحسبنا قوله صلى الله عليه وسلم:"واختصر لي الكلام اختصارا".

ويكفي في التعرف على ملامح الصورة الأدبية في القصص النبوي أن القصة النبوية ترسم الصورة للمتلقي وفق إطار يشع من "نور الله فتتلاحم الصور لتواجه قوى الشر التي تحاول إبعاد الإنسانية عن فطرتها وإيمانها بما تقدمه تلك القوى من ألوان الأدب النابع من تصورات منحرفة مشوهة([[88]](#footnote-88))". ونجد في أعمال كثير من الأدباء المعاصرين الذين اصطبغ عطائهم الأدبي بصبغة إسلامية مكنت له التأثير والذيوع والانتشار وبخاصة في مجال القصة والشعر مما سنقف عليه من خلال إيراد عدد من النصوص البديعة في هذين اللونين من الأدب الإسلامي، نجد الصورة الأدبية المرسومة بحد مرسوم.

ولقد كثرت القصص الإسلامية المعاصرة كثرة يحتاج معها في طريقة الاختيار والدراسة إلى مزيد من التأني. ومن هنا سأقتصر على إيراد ثلاثة من القصص الروائية إحداهن للأديب الإسلامي "نجيب الكيلاني" والثانية للأديب المسلم "أحمد بدوي" والثالثة للكاتبة الإسلامية "عزيزة الأبراشي".

فمن القصص الروائي الرائع ما كتبه الأديب الدكتور/ نجيب الكيلاني من مثل قصته "ليالي تركستان" وقصته "عمالقة الشمال" وقصته طلائع النور" وقصته "نابليون في الأزهر" تلك التي سنخصها بالدراسة لا على أن غيرها مما كتبه في القصة دونها. ولكن لبروز ملامح الفنية الإسلامية في كثير من فصولها وأفكارها وموضوعاتها.

وثمة خصوصية أخرى برزت في سياق هذه القصة الروائية من بدايتها إلى نهايتها. وتلك الخصوصية تتمثل في حشد طائفة من الأشخاص الحقيقية والخيالية المتباينة سلوكا ومظهرا ومعتقدا مما يتيح للناظر الوقوف على قدرة هذا الكاتب الفنية التي مكنته من صياغة كل حدث بما يتلاءم مع هذه الشخصيات على اختلافها في المظهر والمخبر والنظرة إلى الحياة والأحياء.

ولقد اشتملت هذه القصة على أربعة وثلاثين فصلا في أربعة وخمسين ومائتي صفحة.

وإيراد نصوصها كاملة يفوت الطلبة على الدراسة والغاية منها ولذلك سنجتزئ نماذج من عدد من فصولها.

فمن نصوص الفصل الأول يقول الكاتب الكيلاني:

"بولاق في أواخر القرن الثامن عشر" والسفن ترسو بالميناء الشهير حاملة شتى أنواع البضائع من أنحاء الأرض.. وقصور الكبار من رجالات القاهرة تقف شامخة كقلاع صغيرة وأغلب هذه القصور يسكنها المماليك والأتراك، وعدد قليل من المصريين الأثرياء كالتجار وأصحاب المناصب.. وخلف تلك القصور الشامخة وحدائقها الشائقة تقبع البيوت الصغيرة الكثيرة، حيث يعيش أبناء الطبقة الدنيا، ومنهم أصحاب الحرف الصغيرة، والباعة المتجولون، وصغار تجار التجزئة، وفقهاء "الكتاتيب"، والخدم والخفراء وغيرهم.

والحركة في بولاق دائبة لا تكل، وأصداء أصوات الباعة تملأ الطرقات، والنسوة يسرن متشحات بالملابس السوداء، على وجوههن خمر شفافة، تزيدهن جاذبية ورقة وعدد من الأطفال الحفاة، يتخبطون ويسرعون هنا وهناك، ومن آن لآخر تظهر عربة مزركشة محلاة بالمعادن الثمينة، تجرها الجياد المطهمة يسبقها اثنان أو ثلاثة من العبيد المهرولين وبداخلها مملوك كبير المقام، أو تركي من علية القوم، ترتسم على وجوههم سيماء الكبرياء التي لا حد لها، وقد يخترق الشارع فارس من رجال مراد بك أو إبراهيم بك – قادة المماليك وحكام مصر – في رعونة وطيش دون أن يخشى طيشا أو عقابا.

وفي مكان يبعد كثيرا عن ترسانة بولاق الشهيرة، كان يوجد منزل الحاج "مصطفى البشتيلي" أحد كبار التجار، لم يكن منزله قصرا منيفا كباقي القصور، ولم يكن متواضعا كبيوت الطبقة الكادحة وإنما كان في مكانة بين الاثنين.

(ويستمر الكاتب في سرد أوصاف منزل الحاج) "مصطفى الشتيلي" أحد شخصيات وأبطال هذه القصة الروائية الإسلامية حتى يلج إلى الغاية والدور الذي يؤديه هذا البطل قائلا:

"وفي حجرة الاستقبال الرئيسية جلس الحاج مصطفى، وحوله عدد من الأصدقاء فيهم الشيخ "علي الجنجيهي" مقرئ القرآن وصاحب الصوت الرخيم وفيهم العالم المتبحر الشيخ "إبراهيم سلامة" و"أحمد المدبولي" صاحب الخبرة في صناعة البارود والسلاح والحاج "غمري" التاجر الصديق وغيرهم من الشيوخ والشبان([[89]](#footnote-89))".

ثم يمضي الكاتب في وصف الجلسة التي جمعت هؤلاء الأشخاص على هيئة معينة من حيث وصف المكان والزمان وما عليه كل شخص من السمات والأوصاف التي تتلائم مع الشخصية والجودة في أداء مشاهد هذا الفصل فمثلا الحاج مصطفى البشتيلي شيخ وقور مطرق دائم التفكير يعتمل في ذهنه وتتردد في خواطره وتلامس شفاف نفسه "انفعالات شتى لا يعرف من خلالها كيف يتلقى الأمر ولا كيف يزنه الوزن السليم، وكل شيء في هذا العالم من حوله مضطرب متناقض "يشعر وكأن روحه سجينة مقهورة لا تستطيع التحليق والانطلاق لسحق الرؤوس العفنةـ وتحطيم كل القيم السخيفة: وكلما هم بمقاومة أعداء الدين والفضيلة والمجتمع المسلم وقفت في طريقه ابنته "زينب" وحرمه التي اعترضت طريقه في إصرار وحزم مطلقة عبارة قاسية شديدة "لن تخرج من هنا إلا على جثتي".

ثم يعرض الكاتب شخصية المقرئ الشيخ "على الجنجيهي". إنها شخصية تتصنع البهجة والسرور وتداوي جراحها بالصبر والأناة فتطلق العبارات التالية:

"لا أسكت الله لك حسا"

"أتنوي إقامة مأتم من أجل إشاعة كاذبة؟" كاذبة أفق يا مولانا.

وهكذا يستمر الكاتب في عرض هذه الشخصيات وأوصافها حتى يشكل من هذه الأوصاف وما يدور في خلدها من عبارات وأراء عقدة هذا الفصل وما ينبغي أن يتخذ إزاءها من حلول تعيد الحق إلى نصابه.

ومن هنا ندرك عقدة القصة بارزة في سيادة خليط من الناس الغرباء على الأرض والعقيدة والمجتمع إنهم سادة من المماليك والانجليز منهم كافر ومنهم مسلم لكن لا حول ولا طول للمسلمين على الكفرة من الانجليز.

وهنا يدور الحديث التالي ذو الصبغة الإسلامية في كيفية إيجاد الحل لهذه المشكلة. فينسج الكاتب الكيلاني خيوط العقدة والحل متخذا من أبطال القصة موقفا إزاء كل شخص فيقول عن دور الحاج مصطفي:

احتقن وجه الحاج مصطفي، وبدرت نظرة الغضب من وجهه المستطيل النحيل، وبرقت عيناه في حدة وقام مهتاجا:

كلهم ملعونون.. لكن نحن! ما مصيرنا؟ وإلى متى نظل ألعوبة في يد الغرباء والغزاة؟

هل خلقنا الله لنكون مطية يركبها كل قادم من وراء البحار؟ هل كتب علينا أن تبقى حياتنا سلسلة متصلة الحلقات من الإذلال والضياع. قال الكاتب: ثم التفت إلى الشيخ "إبراهيم سلامة" وكان يجله ويحترمه، وقال:

تكلم يا مولانا..

هز الشيخ رأسه وتمتم: إن ما تقوله يا بشتيلي هو الصواب لكن لا تنس أن الأتراك والمماليك مسلمون مثلنا، لكن الفرنسيين شيء أخر.

- هذا لا يهم يا شيخ إبراهيم.. أين نحن من هذا كله؟ وإلى متى نظل ألعوبة؟

- هذا قضاء الله يا بشتيلي – نسينا الله فوكلنا إلى أنفسنا ونحن تقاعسنا فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومرت لحظة صمت.. قال الشيخ إبراهيم بعدها:

- ومع ذلك فأنا أشك في المراكب الانجليزية التي رست بشط الإسكندرية ثم رحلت بعد أن أطلقت تلك الشائعة. لعلهم كانوا ينوون التهامنا. وأعتقد أن قوة الحكام العسكرية – على أسوأ الفروض – تستطيع أن تصمد أمام عدوان فرنسا المحتمل، وقد أكد إبراهيم بك ومراد بك ثقتهم الكاملة بالنصر:

ابتسم البشتيلي في غيظ وقال:

* إنه الغرور.. ألم تسمعوا عن "نابليون" وتدويخه لأوروبا؟ ألم تسمعوا عن أسلحتهم الحديثة؟
* قال الحاج "غمري" التاجر:

نحن وراءنا تركيا بأسرها؟ والسلطان لن يفرط في شبر من مملكته رد البشتيلي:

* السلطان في حالة لا تسر، إنه يعالج سكرات الموت من الضربات التي يكيلها له أعداؤه.. ومع ذلك فأنا أفكر في اتجاه أخر.

الجميع – نحن.. نحن.. كيف نتصرف؟

لقد ظل أحمد المدبولي صامتا طوال الوقت يستمع الحوار المحتدم ثم نطق أخيرا فقال:

أما أنا ففي الانتظار، وما علي إلا أن أضاعف من إنتاج السلاح والبارود وسأبيع لمن يشتري ما عدا الفرنساويين.. وأظن أنه يكفينا نقاشا، ولنستمع إلى الشيخ "الجنجيهي".

قال الكاتب:

تربع الشيخ الجنجيهي ووضع يمناه على يمين وجهه، وتنحنح ثم استعاذ وبسمل، وأخذ يقرأ:"{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)}"( [[90]](#footnote-90)).

وتنتهي أحداث الفصل الأول من هذه القصة الروائية الإسلامية تنتهي بسياق آية من كتاب الله سبحانه وتعالى.

ويعنى ذلك بروز الفنية الإسلامية عند الكاتب فروحه مشبعة بهدي الكتاب الكريم والسنة الشريفة.

وفي ذلك الختام لهذا الفصل تبدو سيطرة الفكر الإسلامي في أي لون من ألوان الأدب الأمر الذي يعني أن مصادر الأدب الإسلامي في الذروة منها كتاب الله المعدن والمصدر الأول للتعليم والتوجيه والفكر وإن لم يكن كتابا متخصصا في الأدب، لأنه كتاب الله مصدر كل خير.

ولنقف على شيء من نصوص هذه القصة في فصلها السادس. حيث احتدمت أفكار الكاتب حول الجهاد الإسلامي المظفر إزاء كل قوة تريد النيل من الأمة المسلمة وعقيدتها وأرومتها وسيرها في حياتها ومناصبتها العدوان حسدا وضغينة.

ومن هنا يسلسل الكاتب الكيلاني أفكر هذه القصة في موضوعات فصلها السادس متخذا من الفكر الإسلامي نسيجا متينا محكما لإخراج هذا النص القصصي وفق المعالم الفنية الإسلامية فيمضي قائلا:

"قال أحمد المدبولي: رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا شيئاً، إن السلب والنهب لا يفارقهم حتى في أوقات الحرج.

أسرع البشتيلي قائلا:

ماذا في ذلك؟

لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك.

الوضع يختلف يا مدبولي.

وما أطعم أولادي يا بشتيلي في هذه الأيام السوداء؟

الحرب تعني التضحية فنعم ما فعلوا!!

التضحية يا بشتيلي لا تكون سلبا ونهبا وقهرا، والذي يضحي ويترك أولادة خاوية بطونهم إنسان مجنون.

ابتسم البشتيلي، وقال:

لا تتكلم عن خواء البطون فأنا أعرف الكنز الذي ترقد فوقه بصراحة يا بشتيلي وهنا قاطعه قائلا:

تكلم خير لنا أن نمشي حفاة عراة جياعاً ونحن أحرار، من أن نسكن القصور، ونرفل في الحرير والرفد ونحن عبيد للفرنسيين.

قال المدبولي:

الكارثة هو أني لا أؤمن بجدوى المقاومة بعد كل الذي سمعته يجب أن تفتحوا أعينكم جيدا.

إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء.

وخبرتهم الحربية فوق التصور.

واستعداداتهم لا مثيل لها.

دعوا الأوهام والحماس جانبا؛ وفكروا بعقل.

أعرف أن كلامي قد يضايقكم ولعله يوصمني بالجبن والخيانة.

ليكن فأنا رجل أحكم عقلي، وقد علمتني التجارة أشياء كثيرة([[91]](#footnote-91)).

وبعد أن ينتقل الكاتب الكيلاني بأحداث هذا الفصل ضمن أسلوب قصصي فني تحكم إطاره عبارات حوارية بين أبطال مشاهده ما بين استفهام وتعجب وعرض وإقناع ومشادة. حتى إذا شكل عقدة الفصل اتجه إلى أسلوب الحل الناجع.

ومن هنا يدرك القارئ والمتلقي قدرة الكاتب على استكناه الغاية من القصة الإسلامية.

وذلك بربطها إلى التصور الإسلامي وشدها إلى محوره. حيث تبرز نقطة الحل من نقطة الانطلاق إلى الجهاد الإسلامي فيدور المشهد الأخير من هذا الفصل في ظلال الأسلوب التالي من قوله:

توتر الجو في منزل الحاج "مصطفى" بصورة ملفتة للنظر، لقد كانت زوجته أطوع له من بناته لم تسفه له رأيا أو تعترض على أمر من الأمور إن زوجها هو سيدها، وهي تؤمن بنانه يعرف أكثر مما تعرف وخبرته في الحياة أكبر من خبرتها. ثم انه – أولا وأخيرا – رجل، هل تستطيع أن تنسى وضعها البديهي المعروف كأنثى في منزله التابع المطيع.

لقد خرجت عن هذا الوضع المألوف فجأة، وأقامت الدنيا وأقعدتها وخاصة عندما أعادت النظر في تصرفات زوجها لقد رفض رأيها في الهجرة قبل أن تقترب ساعات الخطر لم تستطيع أن تلح عليه كثيرا، لأنها تعلم الكثير من صلابة تشبثه وعدم تنازله بسهولة عن رأى ارتضاه.

لكنها فوجئت به يجند ابنه الوحيد، ويدسه ضمن القوات المجاهدة. بل في الصفوف الأولى تحت أمرة (إبراهيم بك) الذي عسكر بجيشه عند بولاق.

ومعنى ذلك أن فرصة النجاة لولدها أصبحت نادرة الحدوث ولم يكتف الزوج بذلك بل دس نفسه ضمن القوات البحرية على إحدى السفن الراسية في الميناء.

وأكبر من ذلك انه لم يرحم ابنته (زينب) فقد اختطف خطيبها ودفعه إلى الميدان. بل واشترى شحنة هائلة من البارود والسلاح بمبلغ كبير من ماله ووزعه على القوات المجاهدة، وتخلص من معظم المخزون لديه من البضائع بأبخس الأثمان كي يمول بها المحاربين.

وعندما بدت الدهشة على وجه زوجته صرخ محتدا: أيتها الجاهلة. لقد استطاع عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يجهز جيشا كاملا من ماله في صدر الإسلام. وما عند الله خير وأبقى والدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، لقد شغلتك الدنيا عن كل معنى نبيل.. إنك لم تفكري في شيء سوى أولادك والمال والخنوع للحياة الدنيا.. يا للمهزلة ومنذ متى كنت تعترضين مشيئتي"([[92]](#footnote-92)).

وهكذا يمضي الكاتب في تصوير المشاهد وعرضها بأسلوب قصصي رائع مستلهم من الفكر الإسلامي.

فيصور موقف الزوج والزوجة حتى ينتهي الأمر بالإصرار على الجهاد. ويصور احتدام المعارك بين المجاهدين وأعدائهم مبينا غاية المسلم من الجهاد وأنها في إحدى الحسنين (النصر أو الشهادة). ومن هنا يصور الكاتب مشاهد المجاهدين ما بين قتيل وجريح مضرج بالدماء، ويصور لوعات الأقارب وأحزانهم وصبرهم وبلائهم. وكل ذلك لم يثن عزيمة أحد من هؤلاء أو هؤلاء ليقينهم أنهم أحياء مهما ماتوا. وليقينهم بعظم الأجر والمثوبة نصروا أو هزموا.

ثم يضفى الكاتب على بقية فصول القصة من سحر بيانه ما يعالج به عددا من قضايا الإسلام والمسلمين في حقبة ضعف فيها المدد وقوي فيها الأعداء، ويلح في كل فكرة يسوقها على أن قوة المجاهد المسلم لا تكون إلا بالإيمان لتكون كلمة الله هي العليا.. وأن كل شيء هالك إلا وجهه.

وبعد فلنتخير بعض الجزئيات التي أدرجها الكاتب في تلك القصة التي سكب قوالبها في أربعة وثلاثين فصلا لنتبين أن كل فصل يعبر عن مشهد تتنوع جزئياته من الأطر القصصية ذات الصبغة الفنية ما بين مشاهد درامية في أسلوب حواري متكرر في عدد من أبطال القصة الذين يسوقون أحداثها من خلال واقع مجتمع مسلم كادت تذهب ريحه وتنفلت عراه، وتقضي عليه زمرة الكفر والإلحاد لولا أن الله سلم وانتصر للحق فهو الحق وحده لا شريك له، وهو وحده لا قوة ولا حول ولا طول لغيره.

وفيما أوردنا من نصوص الفصل السادس من فصول هذه القصة يلح الكاتب على فكرة إسلامية تربط الناس بخالقهم كلما حزبهم أمر يقول: على لسان أحد أبطال القصة في هذا الفصل وكان تاجرا سماه: أحمد المدبولي مخاطبا بطلا أخر من أبطال القصة (البشتيلي):

(رجال إبراهيم بك استولوا على كل ما عندي من بارود دون أن يدفعوا ثمنا، إن السلب والنهب لا يفارقهم حتى في أحرج الأوقات وأدقها، أسرع البشيلي قائلا: وماذا في ذلك؟؟ يرد التاجر احمد المدبولى لكنك أقمت الدنيا وأقعدتها عندما نهبوا متاجرك، وهكذا يستمر الحوار بين هذين البطلين حتى يقاطع التاجر بهذه العبارات عن معنى الجهاد والتفكير فيه بعقل وروية حتى لا ينزلق المجاهدون ويرموا بـأنفسهم إلى التهلكة فلا بد من استعداد تام وقوة تقودها قوة الإيمان والضمير، يقول التاجر:"الكارثة هي أنى لا أؤمن بجدوى مقاومة الأعداء بعد كل الذي سمعته، يجب أن تفتحوا عيونكم جيدا، إن مدافع الأعداء لا يقف في طريقها شيء، وخبرتهم الحربية فوق التصور، واستعداداتهم لا مثيل لها.. دعوا الأوهام والحماس جانبا وفكروا بعقل.. أعرف أن كلامي قد ضايقكم، ولعله يصمني بالجبن ولكن ليكن ذلك فأنا رجل احكم عقلي.. وهنا يسود الأبطال صمت رهيب حتى يخرج فيهم احد أبطال القصة واسمه (إبراهيم) فينفجر غضبا لكن البشتيلي يقاطعه في هدوء ليرد على التاجر قائلا:(لك أن تفكر كيف شئت؟ وتصل إلى ما يقنعك من نتائج لكن الشيء الذي لا جدال فيه هو إن أية أمة يعتدي عليها المعتدون لا بد أن تهب للدفاع عن ذاتها وحوزتها وعقيدتها). وهنا يعود الهدوء إلى نفس الشيخ إبراهيم فيرد على التاجر قائلا (دائما تنسى يا مدبولي حكم الله في مثل هذه الأمور البديهية لأنك تفكر بعقل التاجر وأسباب التجارة ناسيا أو متناسيا إن الجهاد شيء آخر فقد يخسر الإنسان المجاهد ماله وحياته وأولاده لكنه هو الظافر الرابح. مدبولي مقاطعا ولكن كيف؟ الشيخ إبراهيم: هكذا قال الله تعالى في كتابه العزيز:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} إلى آخره من آيات الجهاد الكثيرة.

ويستمر الكيلاني في أحداث القصة حتى يختم احد مشاهدها بمشهد يتم فيه تجنيد أحد الرجال ابنه الوحيد الذي لا ولد له ولا لأمه سواه، ويركز الكاتب على استجاشة عاطفة الأمومة نحو الولد، واستثارة روح الحماس من الأب وينتهي المشهد بتغليب موقف الأب فينخرط الابن في صفوف المجاهدين، وتظل الأم واجمة النفس مضطربة القلب وخاصة عندما يشرد بها الخيال فتتخيل أن وحيدها قد لا يرجع إليها، وان زوجها قد تقضى عليه رمية طائشة. ولكن فجأة يعود الابن بعد أن بلى في الجهاد حسنا يعود ليرد إلى أمه شيئا من البر بها انطلاقا من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (ففيهما فجاهد).

وهكذا تستمر أحداث هذه القصة الروائية الإسلامية بعد أن يترك الكاتب في آخر فصل من فصولها ختاما بين مصيرين: احديهما مصير الكفر بين موت وضياع، وثانيهما مصير الإيمان بين حياتين كريمتين في الدنيا والآخرة، فالأحياء من المؤمنين أووا ونصروا ونشروا العدل والسلام والأموات أحياء عند ربهم يرزقون.. ويترك هذا الكاتب الإسلامي على آخر سطر من سطور قصته (نابليون في الأزهر) عبارة مات برتلى، وعاش البشتيلي على الرغم من بقاء (برتلى) في حياة بين الذل والضياع والهوان، وموت البشتيلي ملتحقا بركب الشهداء والأولياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وفي حسن هذه الخاتمة تتجلى قيم شعورية راسخة في قلب كل مسلم وبخاصة المسلم الأديب لشفافية روحه وصدقه. هذه القيم هي:

الصدق، والإخلاص، والإنسانية.

فالصدق أول عنصر توحي به إنسانية القصة.. صدق الإحساس وصدق التعبير، حيث لا صنعة ولا تزيد. والصدق في القصة الأدبية وبخاصة القصة الإسلامية لا بد له أن يعتمد على نفاذ البصيرة وألمعية الفكر، فانه لا سبيل إلى الإحساس الصادق، والتعبير الصادق إلا إذا كان الكاتب مزودا بقوة الفهم للنفس الإنسانية وسبر أغوارها، وبالحذق في تصيد خوالجها الباطنة.

ومعلوم أن الصدق الشعوري، والصدق الفني من خلال براعة التصوير لأحداث القصة وعرض موضوعاتها لمعالجة واقع اجتماعي ينبغي إصلاحه إنما ذلك الإخلاص في العمل الأدبي. وأي قصة أدبية تحيد عن هذه القيم، أو هذه الخصائص إنما هي (قصة لا يزيد طنينها على أن يعبر الأسماع، ولا يمكن أن يكون سلطانها إلا بارد الأثر عاجزا عن أن تستجيب له النفس).

وأما الاتجاه الإنساني في القصة الأدبية، وبخاصة القصة الإسلامية فليس عنصرا دخيلا عليها ولا مفروضا من خارج الأطر الفنية للصياغة ولكنه من طبيعة العمل الفني، وإذا اتجه الكاتب القصصي إلى تقويم هذا العنصر وإلى علاجه من خلال عنايته بالعناصر الفنية الأخرى التي تكفل لعمله الأدبي عوامل التأثير والخلود"([[93]](#footnote-93)) وهذا هو ما اشتملت عليه قصة الأديب الكيلاني (نابليون في الأزهر).

ومن بدائع القصص الإسلامية الروائية ما حرره الأديب (احمد بدوى) تحت عنوان:

(أختاه أيتها الأمل).

في فصول ثمانية سرد الكاتب هذه القصة حدثا حدثا وفكرة فكرة وضمن كل فصل موضوعا يعالج عددا من القضايا الاجتماعية والقيم الإنسانية مستهلا كل فصل بآية قرآنية أو حديث شريف، أو حكمة صائبة.

فالفصل الأول يبدأ بانطلاقة بطلة (القصة) تلك الفتاة التي خرجت في الثانوية العامة ودلفت لمواصلة دراستها في الجامعة. إن اسمها (نور) وفي هذا الابتداء في أول فصل من فصول القصة ما ينم عن صدق شعوري في اختيار اسم البطلة التي تبدأ برصف أول فكرة وأول حدث.

وتتوالى أحداث ومشاهد وأفكار هذا الفصل بين خليط من الفتيان المؤمنين والفتيات المؤمنات. وكل الأفكار والموضوعات هنا لا تتجاوز تصوير اللقاء العادي المألوف بين الأصدقاء الذين تجمعهم الفضيلة ويؤلف بينهم حب الله ثم حب الناس.

ويبدأ الفصل الثاني الذي تحت عنوان (ثورة ثقافية في عام واحد) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقاوم لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم، ويأمرونهم وينهوهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة.

ثم يأخذ الكاتب بعد هذا النص الشريف في سرد أحداث هذا الفصل معالجا عددا من القضايا والقيم والتي في أولها (الحجاب في الإسلام).

ثم يبدأ الفصل الثالث تحت عنوان (جليس وجليس) وهنا يستهله الكاتب بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه).

ثم تتوالى أحداث هذا الفصل في إطار محكم متقن على قدرة جيدة من خلال تسخير ألفاظ اللغة لتجسيد المعاني التي يرمي إليها كل حدث.

ويبدأ الفصل الرابع تحت عنوان (الطاقة والسبيل) ويستهله الكاتب بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).

ويبدأ الفصل الخامس بهذه الكلمة من قول (غلاء ستون) أحد وزراء بريطانيا في عهد سابق.

(ما دام هذا القرآن موجودا بين أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان).

وهذا القول شهادة على ما للإسلام من قوة وهيبة في نفوس الأصدقاء والأعداء. فانه – بحق – ما من قوة يمكن أن تقف أمام القرآن متى خالج الإيمان به القلوب.

ثم يتخير الكاتب عددا من الموضوعات ليعالجها في الفصل السادس تحت عنوان (الدعوة والعمل) ويستهله بقوله تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)}.

ويشرع في الفصل السابع تحت عنوان (شرط الإيمان وحد الإسلام) ويصدره بقول الله تبارك وتعالى:

"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما".

ثم يختم القصة بفصلها الثامن تحت عنوان (عندما تصبح السيئات حسنات) ويصدره بقول الله تعالى:

{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)}.

وإذا كانت فصول هذه القصة في جميع ما حوته من موضوعات جديرة بالدراسة والتأمل فإن في إيراد شيء من نصوصها ما يمكن أن يدلل به على سعة العطاء في الفكر الإسلامي، وعلى قدرة الأدب الإسلامي في جميع الأجناس الأدبية على الإمتاع والتأثير والتوجيه السليم. فذلك هو غاية الأدب النبيل الهادف.

فلنجتزئ شيئا من نصوص القصة في فصلها (الثاني) ذلك الفصل الذي تعج مشاهده وأحداثه وموضوعاته بأفكار إسلامية إنسانية حية تتدفق بالمعاني السامية، والقيم الأخلاقية، والمثل العليا التي ينشدها كل أديب مسلم يبتغى بقوله وفعله وجه الله والدار الآخرة.

ومن أجل تحقيق هذه المعاني وهذه القيم والمثل الرفيعة يحشد الكاتب في ثنايا هذا الفصل عددا من الشخصيات في حديث عن (الحجاب في الإسلام) ويقوم عرض المشاهد معتمدا على أسلوب الحوار والشد والإثارة.

فلنتبين ما دار من معاني هذه القصة بين هؤلاء النسوة في حديث عن الجلباب، وأثره في حياة المرأة عفة وصيانة وجمالا، وحفظا وحشمة ووقارا ففي عبارات حوارية يقول الكاتب:(وهكذا انتصبت في مخيلة الأم منارة شامخة يتكسر الموج يائسا عند أقدامها) ولكن نورها ينفذ بهدوء وبلا ضجيج.. ينفد رويدا – رويدا حتى يستقر في أغوار النفس.. وهنا تتنفس ندى، وتهمهم متابعة كلام مي. بتعطش، تبتسم لابتسامتها، وتنفعل مع إشاراتها.

فكرت مي فقالت: أواه كم كنت حمقاء يا ندى أكنت تتصورين أن الجلباب بهذه الأناقة المجردة دون أن تفكري في أناقته وجماله الأخلاقي؟ بل أو كنت تتصورين أن يحتضن هذا اللباس البديع قلبا بهذا الصفاء، أو عقلا على هذا القدر الرفيع من الذكاء؟.. وهذا الرأس الصغير الذي يحنو عليه الخمار حنو الأم على وليدها أكان يدور في خلدك ما يحمله هذا الخمار من عظمة وأفكار؟؟"([[94]](#footnote-94)). لم تفكري – يا صديقتي – فاعلمي أن الغاية من الحجاب تكمن في عظمة الإسلام وحفظه جمال المرأة ومحافظته على عرضها، وصيانته أنوثتها، بل جعله الإسلام حقا من حقوقها لستره إياها من الأنظار الملاحقة، والقلوب المريضة. "وهنا قامت ندى من مقعدها وجلست بجانب مي – وهمست في مسمعها آه ليتك كنت أختا لي، فردت مي: بل إننا أختان أو ليس المؤمنون أخوة"([[95]](#footnote-95)) نصيحتي أن تحفظي جلبابك ليحفظك من كل ما يسيء.

وتنتقل القصة – أختاه أيتها الأمل – تنتقل بالسامع والقارئ من موضوع إلى آخر ففكرة عن الأخلاق، وفكرة عن الحقوق، وفكرة عن نظام الإسلام وأحكامه، وأخرى عن مفاهيم القانون البشري وويلاته وسقطاته، وأخرى عن عبودية الإنسان للإنسان واستذلاله إياه. والتنكر لإنسانيته وما له من حقوق. فاسمع إلى قول الكاتب في حديث قصصي عن (الظلم) "هزت فاتن رأسها آسفة وقالت:(يا حسرة على المسلمين.. كان الواجب أن يخرجوا البشرية من ظلمات الكفر إلى نور العلم والإيمان.. أما واقعهم فشيء محزن بل ومبك – والله يا أخواتي – فها هي أولى القبلتين يساوم عليها – ويصبح مغتصبوها الذين هم أعداء الله ورسوله متعاونين ضد الإسلام وأهله – والأدهى من ذلك أن هؤلاء الخونة المتنكرين الضالين المضلين ممن يتجافون إلى هذا المجتمع اليهودي يرون أنفسهم على حق، ويرون أنفسهم يستحقون المكافأة على صنيعهم هذا.

اهتز وجدان (أمل)، فغطت وجهها بكفيها وهي تغالب عبرات حارقة قائلة: الخيانة هيا الخيانة – مهما اختلفت مظاهرها، والكيد هو الكيد مهما اختلفت أساليبه وما يلقاه المسلمون على ساحة لا يسلمون منه على الساحة الأخرى. فها هم أخوتنا من مسلمي يوغسلافيا يعذبون عذاب الهوان يا للفظاعة. تصورن أن الملحدين السفلة يرمون بهؤلاء من إخواننا وأخواتنا في آلات تعليب لحوم البقر فالمتوحشون يدخلون المسلمين المؤمنين في المسالخ أحياء، ويخرجونهم منها عجينة من لحم وعظم، وقد اختلط منهم كل شيء، وربما أطعموا تلك الأجساد الزكية كلابهم وحيواناتهم، ما السبب في هذه الفظاعة والشراسة – يا أخواتي السبب إيمان هؤلاء المسلمين بالله - :

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)}.

جمدت شفاه الفتيات واصتكت أفواههن، وبرزت عيونهن من محاجرها.، وكأن يد باردة تضغط أعناقهن بوحشة، وبدت الكلمات عاجزة عن التعبير.. وبقيت قبضات بضة مشدودة بإصرار ودقات قلوب غاضبة تكاد تحطم الأضلاع لتقفز صارخة.. وا إسلاماه([[96]](#footnote-96)).

وينتقل كاتب قصة (أختاه أيتها الأمل ، ليملى على القارئ درسا إيمانيا تربويا يبصر المسلمين بواقعهم وما يجب أن يكونوا عليه. من تعاهد هذا الدين وتعهده من التطبيق والنشر والدعوة والالتزام. فيقول على لسان (هند) إحدى شخصيات هذه القصة.. (أيتها الأخوات يجب أن تذكرنا دوما أنه ما أصيب الإسلام بنكسة إلا وقد سبقها خلل في تبني المجتمع المسلم لرسالته الربانية وعدم وضوح لطبيعة عقيدته، وما يترتب عليها من تكاليف على أفراده وجماعته بل وسيطرة مفاهيم وتصورات خاطئة أعطاها الانحراف قدسية المفاهيم الربانية الصحيحة.. تهلل وجه مي رضا بآراء هند وتحليلها فوافقتها قائلة بحزم وعزم صدقت – يا أختاه – صدقت. ولطالما تدبرت – قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تبايعتم بالعينة، واتبعتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم إلا العودة لدينكم) أو كما قال صلى الله عليه وسلم ردت هند على صديقتها مي. صدق رسول الله عليه وسلم وجازاك الله خيرا يا أختاه. وقد أضاء حديثك معنى هذا الحديث الشريف في ذهني فاللهاث وراء الحياة الدنيا، وإهمال الجهاد لنشر دين الله وتحكيمه في حياتنا وحياة الإنسانية جمعاء كل هذا سيغرقنا في حياة الذل والضعة كما هو حال المسلمين اليوم – إلا من شاء الله منهم – وها هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحي من ربه – تبين لنا أن الطريق الوحيد للعزة والخلاص أن يعود المسلمون فيتدارسوا دينهم ويفهموه ويسعوا جاهدين حتى يصبح هو وحده مصدر سلوكهم وأفكارهم وكل شأن من شؤونهم، ولو كلفهم هذا كل غالي ونفيس من متاع هذه الدنيا الفانية. هكذا – فقط – نغسل عن أنفسنا ذل الدنيا ونتقي عذاب الله وسخطه في الآخرة هذا هو السبيل وهذه هي التجارة التي جعل الله ثمنها جنته. ومغفرته في الآخرة، ونصره القريب في الدنيا، اكتست مي بمزيد من خشيه الله، وتهدج صوتها بالبكاء من قدسية القرآن وهي ترتل قول الله تبارك وتعالى.. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)}.

ويستمر الكاتب في أفكار هذا الفصل من فصول قصته (أختاه أيتها الأمل) فيختمه بما يلي:

شعت كلمات الله القدسية في نفوس الفتيات عزيمة وإصرارا على الاستجابة للتوجيه الرباني، وتوهجت عقولهن بنور الله منارة تضيء ظلمة الجاهلية المعاصرة فليتشابك ضياؤها مع ضياء منارات مبثوثة على هذا الكوكب الأرضي، وليعم الأمن وسلام الإسلام كل رقعة من الأرض، كل بني الإنسان([[97]](#footnote-97)) وما ذلك على الله بعزيز.

وإذا كان هذا هو شأن القصة الإسلامية تأثيرا وإمتاعا وإحكاما لمعالم القصة الأدبية فإن في المضي والوقوف على قصص أخرى ما يعين على تبين الأدب الإسلامي على تحقيق هذه الخصائص الفنية التي يضعها النقاد في معاييرهم النقدية، ويصفون العمل الأدبي من خلالها بالجودة أو الرداءة على حسب ما يحققه الأديب وقدرته، ويحققه نصه الأدبي بجودته. وهناك من القصص الإسلامي كثيرة كلها جديرة بالوقوف والتأمل ولما كان في ذكر بعضها ما يغني فسنكتفي بإيراد شيء نصوص قصة "إصلاح" للكاتبة الإسلامية "عزيزة الإبراشي".

لقد استلهمت الكاتبة هذه القصة الروائية الإسلامية من واقع الحياة التي يعيشها كثيرا من الشباب المسلم، والشابات المسلمات جهلا من الفريقين بأحكام دينهم الإسلامي.

وقد سكبت الكاتبة معانيها الجليلة في إطار قصصي بديع حيث عممت أفكار القصة على أبطال هذه الرواية وهم:

"إصلاح": تلك الفتاة الجميلة التي أراد الله تعالى أن تهتدي إلى الحق، وتر بعين اليقين معاني الإسلام، ومكانة المرأة في ظل أحكامه العادلة ومثله الرشيدة.

ثم زينات هانم "تلك السيدة الأم التي لعب الشيطان بعقلها وعواطفها وأغواها حتى جعلت من بيتها خدما وحشما وفتيات يرعين الرذيلة ويمارسنها في مكان دعاري فاسد ممتد على شط نهر امتداده للشر والفساد على حد ما تخفق فيه أرواح وأرواح كلها جمعت لتودي بإنسانية الشاب والشابة في مهاوي الرذيلة بأي حساب.

ومن شخصيات هذه القصة "عنايات هانم" تلك الشخصية التي لا تقل عن صديقتها "زينات هانم" في التخلق بأخلاق السوء والتنكر للعرف والشرع والتقاليد الإسلامية.

وهناك من شخصيات هذه القصة عدد من الفتيان والفتيات لكل واحد دوره الخاص به في سرد أحداث هذه القصة وعرض موضوعاتها وعلاج ما ترمي إليه من قيم إنسانية رفيعة.

ومن نصوص هذه القصة الإسلامية البديعة قول الكاتبة (عزيزة الإبراشي) في وصف أول مشهد من المشاهد القصصية التي عرضتها:(في ذلك الحي الهادئ وعلى إحدى ضفتي النهر حيث يهب نسيمه الوادع، وتتمتع العين بمنظره الساحر تجد قصرا من أفخم القصور رابضا في أحضان جزيرة جميلة شامخا بعظمة بنيانه بين القصور الشامخة الشاهقة. التي تكتنفها البساتين المزهرة، وتظلل شوارعها الأشجار المورقة ويشملها الهدوء([[98]](#footnote-98))).

وتسهب الكاتبة في وصف هذا القصر الجميل شدا لذهن السامع فتخلع على شرفات القصر وساحاته وغرفه ما يدق عن الوصف من بديع التصميم، وتناسق البنيان، وتناسب الأجزاء حتى فاق ما حوله من قصور جميلة رائعة وهذا الصنيع من الكاتبة مقبول إلى حد ما، ذلك أن القصة الأدبية تتطلب المزيد من الإسهاب في الوصف والصور التخيلية توصلا إلى رسم الحقيقة الماثلة في العقدة والحل والخروج منها بمخرج يليق بأهداف القصة والغاية منها، وبعد أن انتهت الكاتبة من رسم خطوط القصة بريشة الرسام المبدع الماهر انتقلت لتحلق بالقارئ والسامع في مضامين عقدة هذه القصة مبتدأة برسم لوحة جميلة تخلب الناظرين، وتحرك فيهم معاني شريفة سامية من خلال فكرة السلب والإيجاب في المضمون الذي ترمي إليه الكاتبة عزيزة الابراشى، فتعطى الفتاة (إصلاح) نصيبا كبيرا من أسلوب وعرض محاكمة الأفكار التي ينسجها خيال القاص ذي القدرة على الإبداع.

فإليك شيئا مما سجلته الكاتبة عن عقدة هذه القصة:

(ففي منعطف أحد الشوارع الفسيحة الجميلة يختفي ويظهر للأبصار مكان يلفه الحياء وتتقاسمه القوى الشيطانية غير عابئة بهذا الحياء عند آخرين إنه مكان للتجميل يجلس في غرفاته عددا من الرجال والنساء للقيام بتصفيف الشعر وتمشيطه والاشتغال بوضع المساحيق والأطباب والتنعيم لبشرة هذا الجنس وهذا الجنس.

وفي ساعة من ساعات النهار المبكر تلتقي السيدة زينات هانم ومعها ابنتاها:

(إصلاح) تلك الفتاة التي تمتاز على أختها وأمها بجمال فاتن وقوام بديع يلتقي الجميع بالسيدة عنايات هانم تلك التي جاءت إلى هذا المحل لنفس الغرض والغاية، إنه تصفيف الشعر والتجميل استعدادا للمشاركة في حفلة ستقام في القصر المعمور للخراب والفساد والدمار وهنا يحصل من الفتاة الجميلة (إصلاح) ما لم يخطر لأمها وأختها وصديقتها ففي أثناء حديث وتشاور وهمهمات بين السيدتين الكبيرتين زينات، وعنايات تسللت (إصلاح) في هدوء إلى مدير المحل، وطلبت منه أن يقوم بتجميلها وتصفيف شعرها، سيدة من العاملات بالمحل لا أن يقوم بذلك رجل من العاملين بعد ذلك عادت إلى مجلسها مع أمها وصديقتها وأختها وأخويها، ومضت فترة وجاء الحلاقون فاتخذت كل واحدة من النسوة الفتيات مكانها بقرب حلاق، وقبل أن يبدأ العمل أقبلت فتاة ترتدي معطفا أبيض واتجهت نحو مقعد الفتاة (إصلاح) للقيام بعمل تجميلها، فعلت الدهشة وجوه الجميع مستنكرين ومنكرين على (إصلاح) أن يقوم بتصفيف شعرها امرأة مثلها واشتعل الغضب في وجه أمها (زينات) قائلة: لماذا استدعيت الأنسة؟

أنسيت أن الرجال هم أجدر وأمهر من النساء في تصفيف الشعر وتزين الرأس والبشرة؟ فأجابت الفتاة (إصلاح) بصوت رزين: ما زلت اعلم ذلك يا أماه ولكني عرفت أخيرا من أستاذي في الكلية أن جلوس المرأة إلى الرجل ليزين رأسها حرام ويغضب الله تعالى، فسخر الجميع من إجابة إصلاح واتجهت إليها أختها (سوزان) قائلة في إنكار واستنكار: أستاذك؟ حقا لقد غير الشيخ كثيرا من طباعك العصرية وآرائك الحديثة، ولشد ما أخشى عليك الاتصاف بالرجعية إذا تماديت في ذلك، فنظرت إليها إصلاح ولم تزد على أن قالت: إذا كانت الرجعية معناها الرجوع إلى أوامر الله تعالى ورسوله، فما أسعدني بتلك الرجعية، وكان هذا الحوار بين الأختين على مسمع من أمهما وصديقتها عنايات تلك التي جعلت تنصت إلى كلام الفتاة (إصلاح) في صمت ما لبث أن استحال إلى عجب أخرجها عن صمتها فراحت تتساءل قائلة: من يكون هذا الشيخ؟ أجابت إصلاح: انه عالم جليل جاء به أبي ليرشدني ويرشد أخوتي فقاطعتها عنايات قائلة في استنكار: عالم؟ ما لك يا ابنتي وكلام الشيوخ وآرائهم إن للشيوخ طريقة في الحياة لا تناسب طبيعة نشأتك: التفتي من حوليك هل ترين أحدا من الناس يسمع لقولهم، أويتعظ بوعظهم؟ فردت الفتاة إصلاح على هذا الكلام النتن الخبيث قائلة: سبحان الله ما أشد جهل الناس بصالحهم إذا مرضت أجسامهم بادروا إلى الأطباء للعلاج حفظا لحياتهم الفانية أما من يشفون أرواحهم بعد الله تلك الأرواح التي هي مصدر حياتهم الدائمة فهم عن هذا العلاج غافلون وبالمهرة من أطبائه مستهزئون!! ثم اتجهت إلى السيدة عنايات قائلة لها: عفوا أختي الكريمة ما أحوجنا إلى وعظ علماء الدين في هذا العصر، أليس العلماء هم ورثة الأنبياء وللأرواح هم الأطباء؟ فلم لا نستمع إلى وعظهم وإرشادهم([[99]](#footnote-99)).

وهكذا تمضي الكاتبة في حوار طويل بين أبطال القصة كلما جاء المتطرفون بقول فاسد ورأي خطل ردته الفتاة إصلاح وفندت دعاواهم وأفسدت آرائهم ودلتهم بحزمها في الرأي وقوتها في العارضة وصدقها في العبارة إلى الصواب، ويشاء الله جل وعلا أن يصلح أمر الفتاة إصلاح.

وهنا تسرد الكاتبة عددا من الأفكار والمعاني في أدوار حواريه بين بطلة القصة وإصلاح. وبين معارضيها من أبطال القصة الآخرين.

ويستمر العرض والحوار فيما يزيد على إحدى وثلاثين وثلاثمائة صفحة لرسم صورة بل صورة للكيفية التي تم بها تم خلاص الفتاة إصلاح من براثن الرذيلة وانفتح أمامها باب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة إنها قد ودعت قصر الخراب والدمار ذلك المكان الآفن الذي أظلم نوره وأغلقت أبوابه، ونوافذه، وأصبح حديث المتحدثين، وعظة الغافلين، لقد ودعت الفتاة إصلاح ذلك القصر ورحلت إلى بيت الله الحرام لقضاء فريضة الحج وكأنما خلقت من جديد لقد رأت من نور الإسلام وهدايته ما رأت فقد سكنت نفسها وقصر طرفها واحتفظت بجمالها ورزقت زوجا شابا مسلما مستقيما تقدم لخطبتها من محرمها الذي كان يرافقها في رحلة الحج فقد طلب الشاب محسن من أخي الفتاة طلب الزواج من إصلاح فتم له ولها ما يريدان فاجتمع شمل محسن بإصلاح وما أجمل الإحسان والصلاح في حياة فردين يضمهما عقد زواج شرعي صحيح، لقد كانت إصلاح خير زوجة لزوجها فقد فتحت أمامه أبواب كل خير، وكان محسن من المحسنين بإصلاح المهتمين بشئونها الزوجية الذي كلما دخل عليها دارها وجد عندها ما يسر ويبر فلم يزل يردد قول رسول الله :(فاظفر بذات الدين تربت يداك).

وأخيرا تختم الكاتبة (عزيزة الأبراشي) فصول قصتها بفصل أخير تحدد في موضوعاته، وأفكاره، وحوادثه المعاني الشريفة السامية التي يهدف إليها الأدب الإسلامي من خلال ألوانه الأدبية شعرا أو نثرا، وتقوم وظيفة هذا الفصل على امتزاج آراء وأفكار تعتمل في نفس عدد من الأشخاص الذين هم عبارة عن بيت أسري يتألف من :(محسن) و(إصلاح) زوجين كريمين عفيفين أسعدهما الحظ في ظل الحياة الزوجية المشروعة بهدى الإسلام وحكمه العادل السليم.

ومن جده وخالته: هذا الشخصان اللذان بقيا من أسرته على مر الأيام، وكانا يكرهان زواجه من الفتاة (إصلاح) لعلمهما بالماضي الذي مرت به في تربية بيتها الأسري بين أبويها وأخواتها وصديقاتها، ولم يعلما بعد كيف غيرت الحال من شأن هذه الفتاة التي هجرت بيت العهر والفسوق وهاجرت إلى بيت الإسلام بيت الطهر والعفة مبتدئة رحلة العمر الجديد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ولوضع الأصر والأثقال الاجتماعية التي كانت تعاني منها طوال مرحلة عمرها الأول.

ثم عادت برفقة خير زوج انتشلها من واقع مر مريض إلى مثالية إسلامية لا نظير لها، حتى كان لهذه المثالية أثر كبير في حياة الزوج (محسن) وفي حياة غيره من معارفه وأصدقائه إذ هيأ لهم فرصا ليكونوا مثله يعيشون سعداء مع زوجات مسلمات مؤمنات سعيدات في أسرة إسلامية يوحد شملها هدى الإسلام، وتشريعه ونظامه الكامل في الحياة.

ومن بين النصوص التي سردتها الكاتبة لأداء هذه المعاني والقيم قولها في حديث عن مقابلة الزوج محسن لجده وخالته بعد غياب طويل:(هذا أنت يا محسن – مرحبا بك يا ولدي قالت الكاتبة: فاغرورقت عينا محسن بالدمع فرحا بهذا اللقاء غير المنتظر، وفجأة مال إلى جده يعانقه ويقبل يده، والجد مسرور برؤيته، قالت الكاتبة: ثم جلس على الكرسي تجاه سريره، وتكرر ترحيب الجد، وزادت دهشة محسن، وعجب من تبدل حالة جده وتغير مقابلته.

وفي هذه اللحظة جاءت خالته، وأقبلت عليه في لهفة، فقام محسن لتحيتها، فاحتضنته باكية، وقبلته في شوق وحنان، ولم يطل جلوسه وبدأت عاتبة على انقطاعه سائلة عن زوجته مستفهمة عن موعد عودتها من الحجاز.

وكان محسن من تلك المقابلة مبهوتا لا يدري سببا لهذا التحول من جده، ولا من أين عرفت خالته خبر سفر زوجته، وما لبثا أن بدأ الحديث معتذرا: إني أسف يا خالتي لما كان من انقطاعي عن زيارتكم وقد جئت لأعتذر ولأزيل الفكرة السيئة التي لدى جدي عن زوجتي، ونظر نحو جده وتابع: فهل أستطيع ذلك يا جدي؟.

وما أشد الدهشة التي استولت عليه حينما نظر الجد إليه مبتسما وقال في هدوء: لا تقل شيئا يا ولدي، فقد عرفت عنها كل شيء جزاها الله عن صبرها خير الجزاء. فسر محسن على ما به من الدهشة والعجب وقال مستفهما: جدي يعرف حقيقة زوجتي؟ حمدا لله فقد كفاني ما أردت إظهاره، وهل علم جدي بتدينها وصفاتها؟

* الجد: أمس – فقط – من خالتك بعد رجوعي من سفري.

فزاد عجب محسن ونظر إلى جده قائلا: أسافر جدي إلى بلاد المغرب؟

* الجد: نعم يا ولدي بعد شفائي من المرض الذي قد اعتراني بسببك إذ كنت أظن بزوجتك الظنون، وحاشا يا ولدي أن أظن فقد كنت رأيت بعيني ليلة زفافك ما حملني على ذلك. فانبسطت أسارير محسن وقال ضاحكا: والآن هل سر جدي بتحقيق دعاء جد العائلة الغيور؟
* الجد – حمدا لله يا ولدي، (فخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) فزاد سرور محسن بما سمعه وما لبث أن اتجه إلى خالته متسائلا: من أين أتت إليك أخبار زوجتي؟ وكيف عرفت بسفرها؟

فتبسمت خالته وقالت في بساطتها المعهودة: لقد رأيت زوجتك يا ولدي بعيني وأنا بداخل منزلك، وسمعت عن حقيقتها، فما وجدت لها مثلا في هذا الزمن، فنظر إليها مبهوتا، وعاد يسائلها في دهشة: خالتي رأت زوجتي وفي منزلي؟ إن هذا لعجيب وهل عرفتك؟ وماذا قالت لك؟

* لا يا ولدي إنها لم تعرفني ولم تكلمني إلا كما كلمت غيري، ولولا خجلي من أعمالك أمام جارتي لكلمتها وعرفتها بنفسي.
* عجبا كيف كان ذلك؟

كان ذلك يا ولدي منذ أكثر من شهرين، وكان جدك قد سافر إلى (بلادنا) عندما دعتني هذه - الجارة – وأشارت إلى المنزل الذي أمام النافذة لأذهب معها إلى سماع درس من دروس الدين في منزل سيدة بمصر الجديدة([[100]](#footnote-100)).

وهكذا تسرد الكاتبة أحداث وأفكار هذا الفصل في عدد من النصوص تقف بكل نص وفق الأسلوب القصصي الذي يستدعي تنويع العبارة مما يثير عوامل التأثر والتأثير وتتخذ الكاتبة من عقل العاطفة ما يهيئ للقارئ المستمع للمتابعة، حيث إن العاطفة من أبرز الخصائص الفنية التي ينبني منها الذوق الأدبي المرهف، ولأنها من أقوى الظواهر التي تتحكم كثيرا في حياة الشبان والفنيين والنساء وتوقظها البيئات الجميلة والمواقف العنيفة والحوادث القوية([[101]](#footnote-101)).

وهذه الخصوصية قد برزت في ثنايا قصة (إصلاح) من أول فكرة سطرتها الكاتبة ولم تزل ترافقها حتى نهاية هذه القصة التي مزجت بين أفكارها بألوان من الأساليب والعبارات التي تتلاءم مع كل حدث.

وإذا كانت الأعمال الأدبية إنما تقوم من خلال ما اصطلح عليه النقاد بالبناء الشعوري: العاطفة والخيال والصورة الأدبية فإن في دراسة النصوص النثرية من خطابة وقصة مما ألمحنا إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة وذكرنا لمعا منه في هذا الفصل، إن في هذه النصوص ما ينهض بهذه الخصائص ويحققها على الوجه الذي يتميز به الأدب الإسلامي في عموم فنونه وأغراضه، ويتجلى صدق البناء الشعوري في الشعر الإسلامي مما سنتبينه في الفصل الثالث أخر فصول هذه الدراسة.

**الفصل الثالث**

**نصوص من الشعر الإسلامي**

* **موقف الإسلام من الشعر**
* **موضوعات الشعر الإسلامي**
* **خصائصه الفنية**

إن الأدب من منظور إسلامي هو أدب العقيدة الإسلامية التي تحث الفرد والمجتمع على إتباع الحق وقول الحق والشهادة بالحق في كل شيء، والأدب هو فن العبارة ذات الكلمة الصادقة، ولذا كان لزاما على المسلم أن يلتزم في سلوكه ومعاملاته وأفعاله وأقواله بما هو خير، والنقد الأدبي من منظور إسلامي يعنى عناية تامة باستجلاء النصوص الأدبية ليضعها تحت المجهر النقدي فيخرج صالحها من خبثها.

ولقد لازم النقاد الإسلاميون إدامة النظر في العطاء الأدبي الإسلامي حين أدركوا – عن قناعة تامة أن الإسلام هو الكفيل بإصلاح الناس من خلال معتقداتهم وأخلاقهم وعطائهم الأدبي ومن خلال هذا المنهج في النقد الأدبي الإسلامي يتعين على كل ناقد واع بصير منصف أن يقول: إن أول مصادر هذا الأدب هو القرآن الكريم ذلك الكتاب السماوي الذي غير العقلية العربية ورفع النظر من الأرض إلى السماء، وعلم الناس أن يقرؤوا كتاب الطبيعة في فصوله المختلفة من إنسان ونبات وجبال ونجوم وأرض وسماء، وان يقرؤوا ما بعد الطبيعة من إله فوق العالمين هو نور السماوات والأرض.

وبذلك كشف القرآن عن العيون غطاءها فأصبح بصرها حديدا فنظرت إلى العالم من أعلى ورأته وحدة متناسقة الأجزاء تخضع كلها لإرادة الله تعالى، وأعلن القرآن الكريم الثورة على النظرة المادية الأرضية التي كان ينظر بها الجاهلون وغيرهم من أمم الأرض، فكانت ضربة المعول في الأصنام دعوة إلى النظر الجديد فدوت كلمة (لا إله إلا الله) في جزيرة العرب معلنة ضياع الوثنية وعبادة المادية، كان هذا في القرآن وأكثر من هذا، وكان لزاما أن تتغير نظرة الأدب وخاصة نظرة الشعر والشعراء ليرتفع نظر الشاعر الإسلامي ارتفاعه في عقيدته، وأن يكون له جانب روحي كجانبه المادي يرى القرآن يدعو إلى العزة، ليكف الشاعر عن المبالغة في المدح، ويدعو إلى عفة اللسان، ليكف الشاعر ويتحرج عن الإقذاع في الهجاء، ويرفع القرآن من شأن المرأة لتعظم في قصيدة الشاعر فيتسامى في الكلام عن جسدها إلى الكلام عن روحها أمانة وعفة وخلقا.

ولكن الشعر الإسلامي في الحقبة الزمنية من تاريخ الأدب في العصر الأموي لم يتخذ له إماما غير الشعر الجاهلي فقالبه قالبه، وموضوعاته ومادته مادته، وإن كان هناك جديد فجدة في العرض لا في الجوهر، في الشكل لا في المضمون، جدة لا تتجاوز رقة اللفظ بدل خشونته، وتحوير المعنى بدل ابتكاره، وهذا الحكم حكم ليس عاما وإنما يخص الكثير من شعراء العصر الأموي، (لأن واقع ذلك العصر يشهد بوجود عدد من الشعراء انفردوا باتجاه جديد نحو العقيدة الإسلامية يعبر عن شعر الجهاد الإسلامي فيصور معارك الفتوح الإسلامية، ويزن الفضائل الإسلامية بميزان الإسلام داعيا إلى الفداء بكل غال ونفيس داعيا إلى كريم الأخلاق وسمو الروح، وعفة النسيب وسماحة الأريحة، وسخاء اليد. ولنقف على كل شيء من هذه الخصائص في هذه المقطوعة من الشعر الإسلامي المعاصر الذي ورث الفضائل الإسلامية من إلهامات الشعراء في مختلف العصور الإسلامية التي اتخذت القرآن والسنة محرابا لشعرها وشعورها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ودع الناي وخل الوترا لا الكرى يطبق أجفاني ولا ولقد بتنا سكارى لا نعي فإذا نحن على قارعة لا تلوموا دولة البغي على السياسات التي حاقت بنا والقيادات هواها أن ترى والخيانات حديث يفترى والشعارات لديهم ثروة فرقتنا شيعا مجنونة جرعتنا السم من تأويلها |  | واهجر الكأس فقد طال السرى عادت الأجفان ترضي بالكرى واصطحبنا نستعيد الخدرا غادرتنا طللا مندثرا بغيها الساحق حين انتصرا علمتها كيف تجنى الظفرا أن كل الصيد في جوف الفرا والعمالات كلام يمترى تلمس الشمس بها والقمرا ذهل العقل بها وانتحرا ولقينا من أذاها الضررا |

وبعد أن سكب الشاعر هذه العاطفة الإسلامية المتوهجة في هذه المعاني الإسلامية مؤنبا ناصحا لائما كل مسلم محاسبا كان أو مسئولا عن المجتمع المسلم في كل أرض، بعد أن تهدأ ثورة تجارية الشعرية يأخذ في نفس طويل من الملحمة معددا ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون المؤتمنون على الإسلام ورسالة الإسلام فيقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أيها الساعون للمجد بنا حرروا أنفسكم من إثمها قد رجونا النصر من ثوراتكم قسمتنا قسمة ضيزى بها ما رأينا من فقير يغتني أشعلت في كل نفس حسرة يا عذارى الشعر أسدلن الرؤى أنا رجعى لأني مؤمن.. عربي مسلم لا أنثني... قبلتي مكة لا موسكو ولا كان في الليل لدينا عسكر |  | لن يكون المجد إفكا مفترى واتركوا البغي وجافوا المنكرا فإذا نحن رجعنا القهقرى بلغ الأعداء منا الوطرا منكم إلا الغنى افتقرا ورمت في كل قلب خنجرا بدد الخطب خيال الشعراء اتقي الله وأخشى القدرا اتحدي بثباتي الأعصرا أمريكا لا لا ولا انجلترا وصحونا ففقدنا العسكرا |

وتستمر أبيات الملحمة على هذا النسق بشعر يقرع جرسه الأذن ويملأ الفم ويستثير العواطف ويلهب الوجدان والأحاسيس تحت مقاطع من عناوين الملحمة كتصوير الشاعر نكبة حزيران ومأساة فلسطين وجهاد الفدائيين من ذلك قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الفدائيون يا زرع الوغى يا نداء الوحي في أقدامه وحدوا أشتاتكم واتحدوا واصبروا إن عظم الخطب فما وانصروا الله يهبكم نصره |  | يا جنود الثأر يا أسد الثرى يا ضياء في الدياجي نورا واربطوا أحزابكم ربط العرى يدرك النصر سوى من صبرا واشكروه يعط من قد شكرا |

وبيت القصيد في هذا الشعر الإسلامي يلهب الشاعر حماس الفدائي المسلم ليجعله حربه وقتاله واستشهاده في سبيل الله وله ليهبه النصر أو يهبه الشهادة في سبيله.

وبعد: فقديما قال النقاد:(أعذب الشعر أكذبه) أي أن الشاعر متى اعتمد في صوره الشعرية على الخيال المجنح الغارق في المعاني غير الحقيقية كان في إلهامه الشاعري بعيدا عن الواقعية مما يفرض عليه التعمية والألغاز أحيانا في تلمس المعنى والخروج به إلى المتلقي في ثوب قد يعري من الصحة وينعكس الإبداع فيه إلى صورة مشوهة يمجها الذوق وينفر منها العقل وترفضها الفطرة السليمة، وتلك المآخذ قد عرى منها شعر الأستاذ حسين عرب في كثير من أبيات ملحمته، ذلك لأنه في نزعته الإسلامية تقيد بالمعاني الحقيقية التي يمنحها الإسلام كل فرد ولكل مجتمع، فانطلق الشاعر في صوره ومعانيه وأخيلته من هدى الإسلام الذي هو معان حقيقية لا تحتمل التأويل والتخييل المفرط.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أنا رجعى لأني مؤمن عربي مسلم لا أنثني وحدوا أشتاتكم واتحدوا \ |  | اتقى الله وأخشى القدرا أتحدى بثباتي الأعصرا واربطوا أحزابكم ربط العرى |

إلى قوله: واصبروا. وانصروا الله واشكروه. واثبتوا ولا تخدعوا بسياسات أعدائكم، واحذروا، وامضوا في جهادكم لله أولا ثم الوطن والحقوق.

ومن خلال أفكار هذا النص الشعري للأديب حسين عرب، ومن خلال نظرة الإسلام وتصوره الشامل للحياة يمكننا القول عن موقف الإسلام من الأدب بعامة، ومن الشعر بخاصة: إن أول ما يحسن ذكره في هذا المقام أن نقف على شيء من النظم والعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة إبان العهد الجاهلي لتتضح الرؤية في تحديد موقف الإسلام من الأدب عامة ومن الشعر خاصة.

وإذا كنا بصدد الكلام على موقف الإسلام من الأدب بعامة وموقفه من الشعر بخاصة فإن هنالك عادات ونظما وتقاليد وأعرافا وأخلاقا درج عليها العرب في جاهليتهم وجاء الإسلام فأقر من هذا كله ما هو وثيق الصلة بتشريعاته وفق كتاب الله وسنة رسوله .

فمن العادات التي درج عليها الجاهليون: عادات في الزواج وعادات في المهن والصناعات، إلى جانب التمرس بأخلاق إيجابية وأخرى سلبية.

فمن الأخلاق الحميدة: عزة النفس، كره الذل، بغض الظلم، الترفع عن أخذ الدية، إكرام الضيف، حب السلام، حفظ حقوق الجار.

ومن الأخلاق السيئة التي تفشت في المجتمع الجاهلي: لهو الشباب، قلخ الشيوخ، ابتذال المرأة صغيرة وكبيرة، معاقرة الخمر، لعب القمار، الدعوة إلى الثأر، تأريث العداوات.

وقد خالج هذه الأخلاق ألوان من المحامد والفضائل، كصفاء النفس، والإيمان بالله تعالى، وإكرام المرأة للرجل، وإكرام الرجل للمرأة، التأثر بالحكم الصادقة وحب المشورة، والحلم والأناة.

وحين جاء الإسلام أقر من هذه القيم ما يلي: حب السلام، الشجاعة، الإيثار، الكرم، صلة الرحم، حسن الجوار، مساعدة الفقراء، حسن المعاشرة، الحلم، الصدق، الأمانة، الوفاء، الرأفة بالحيوان، التكافل الاجتماعي، مقت الظلم، حقوق المرأة، الحقوق الزوجية، بر الوالدين، ثم ختم هذه القيم الرفيعة والمثل العليا بقول رسول الله :((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

وهذا يعني - بالضرورة – أن الأدب الإسلامي بمصدريه النثر والشعر قد اتخذ من هذه القيم مادته التي ينزع عنها في معالجة الأدواء التي يشكو منها الفرد والجماعة على حد سواء.

وعلى الرغم من أن نقاد الأدب قد نادوا بتأثير العقل والعاطفة والخيال على العطاء الأدبي فإن الإسلام في نظرته إلى الأدب قد وسع دائرة النظرة عند النقاد فسما بالعقل، وسما بالعاطفة ولم يحجب الرؤية الأدبية من خلال الخيال الشاعري، ولكنه عمل على تهذيب العواطف والارتفاع بخيال الأديب عن سفاسف الأمور حتى لا يطغى جانب العاطفة على جانب العقل، فلكل منهما أثره وجدواه في جودة الأدب ورفعته، وقيمه الفنية.

وقد تحدث الإسلام عن المعين الأول للأدب والقيم الإنسانية كلها ذلك المعين هو ((العقل)) فقد جعل له الإسلام مزية تفوق أرقام الحساب، ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييد هذه المزية إلى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء.

وتلك المزية: هي التنويه بالعقل والتعويل. عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف.

ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونه إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارئ – أحيانا – شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنه منزلة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة مقتضيه في سياق الآية بل تأتى في كل موضع من مواضعها مؤكده جازمة باللفظ والدلالة وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهى التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه، ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها.

وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة.

فالعقل في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع من المحظور والمنكور، ومن هنا كان اشتقاقه من ماده (العقل) التي يؤخذ منها العقال، وتكاد شهره العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر.

وهذا يعنى أن الأدب فن جميل قوامه العقل والعاطفة معا فلا يحسن أن يطغى جانب أحدهما على الآخر وها هو العقاد يناقش مسألة الفن الجميل من خلال المنظور الإسلامي، الذي العقل والعاطفة مادته فيقول: إن كثرة الأنصاب والتماثيل في المعابد والصوامع والبيع ليست بالقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذي يدان به في المعبد أو البيعة، لأن المعابد الوثنية كانت تتسع للأنصاب والتماثيل وليست بالنموذج الصالح للأديان في الهداية إلى معاني الجمال والحض على الفنون الجميلة، وهي في جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التي لا تجتمع والجمال في شعور واحد.

إنما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بالنظرة السوية المعتدلة إلى الحياة فلا يقال عن دين إنه يحيي الفنون الجميلة أو يتقبل إحيائها إذا كانت له نظره زرية إلى الحياة، وكان ينظر إليها كأنها وصمه زرية، وإلى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول وانحراف بالإنسان عن عالم الروح والكمال، إن هذا ليس من الجمال في شيء.

والإسلام وهو يرعى حقوق الجمال والاستمتاع به قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها. والتفكير في آلائها:{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7)} سورة الكهف.

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)} سورة الحجر،{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا} سورة ق، ثم إن الجمال بمفهومه الواسع يكون في الصورة والمشهد واللمس والذوق والتمييز بين الأشياء ويكون في المظهر والمخبر والصوت الحسن، ناهيك بترتيل القرآن الكريم من ذي الصوت الحسن الجميل، قد أبيح للمسلم الترتيل القرآني وطولب به {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا(32)} سورة الفرقان.

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)} سورة المزمل.

ولا أعذب ولا أجمل من صوت القرآن يسري في الوجود مع سكون الليل([[102]](#footnote-102)).

وبهذا يكون للأدب الإسلامي مقومات أساسيه يجب أن يقوم عليها بناؤه وعلى الأديب إن يستلهم من هذه المقومات عواطفه ومشاعره وكل أحاسيسه وتجاربه، وهذه المقومات يمكن أن نلخصها فيما يلي:

القرآن الكريم:

ذلك الكتاب السماوي الفريد هو المنبع الأصيل للأدب الإسلامي، لأنه كتاب العربية الشامل، ونظام الإسلام الفريد الكامل، أنزله الله على رسوله فبهر العرب، وشدهم شدا بسلامة منطقه، وقوة بيانه، وأسلوبه الغني الرائع، واستوى في الإعجاب ببيانه المؤمنون وغير المؤمنين وقصة الوليد بن المغيرة، وإسلام عمر بن الخطاب - - خير شاهد على ما للقرآن الكريم من حجة ناصعة وساطعة، وبيان رفيع وإعجاز بياني يأسر القلوب، ويشد النفوس، ويستثير العقول ويمتع العواطف.

والمتأمل في كتاب الله من هذه الوجهة يجد فيها التعاليم الإلهية التي تسمو بالنفس الإنسانية لتخلصها من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان، ويجد فيه التصوير الفني للعواطف، وأشواق النفس الإنسانية كوصف الجنة وما وعد الله به المؤمنين المتقين من جزاء أجر ومثوبة.

ويجد فيه مشاهد الكون والحياتين الدنيا والآخرة، ويجد كل هذه المشاهد مجلوّة في نسق بديع نابض بالحركة والحياة، ويجد فيه القصة بخصائصها الفنية الرائعة التي لا تصدق على القصص الأدبية لأن معين هذه مستمدة من التهويمات والخيال، ومعين القصص القرآني مستمدة من الحقيقة في الإطار والمضمون.

ومن مقومات الأدب الإسلامي: رسمه التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، وإذا فتش الأديب عن مضامينه في أعماله الأدبية فسيجد ضالته في ثنايا هذه المخلوقات من طبيعة صامتة كالأرض والجبال، ومن طبيعة متحركة كالإنسان والطير والحيوان والماء والنبات، وكل هذه المخلوقات مدد فياض ينهل منه الأدباء ليؤدوا خلاصة تجاربهم وتفاعلهم مع الحياة إلى الأحياء في صورة ناطقة حية تجسد للقلوب معاني الفضيلة، وتجسد للعواطف معاني الاتجاه إلى الله فاطر الأرض والسماوات ومن فيهن وما فيهن. ومن مقومات الأدب الإسلامي التاريخ الإسلامي: فهو صفحات مشرقة وصور حية لم تزل تبني أمجاد الإسلام في ضوء ما يعود بالخلف إلى السلف في ظل التوجيهات الربانية في السلم والحرب وفي عموم شئون الحياة. ولذلك يجد الأديب المسلم في التاريخ الإسلامي عطاء ثرا متميزا يعد من أرقي ألوان المعارف التي تمد الأديب بطاقة تعبيرية عن أدب خالد رفيع.

وبهذا يمكن أن يرسم الأديب للأدب الإسلامي منهجا تبين فيه خصائص هذا الأدب. من مقومات هذا المنهج كتاب الله وحديث رسوله لما لهما من أثر في مضامين الأدب بعامة والأدب الإسلامي بخاصة بل إن من مقومات الأدب بعامة ذلك الإنسان الذي خلقه الله وجعله محور الوجود إذا كبت أشواق الجسد، وترك ملذات الدنيا، واعتزل الحياة لأن كل هذه الماديات تطمس وتشوه جانب الخير في أعماقه. ولكن نصحح هذا المفهوم عن الإنسان نقول:

لقد جاء الإسلام ليصحح النظرة إلى هذا المخلوق. فهو ليس مادة فحسب. وليس روحا فحسب. وإنما يجمع في طبيعته وتركيبته بين المادة والروح.

أما الجانب الأول فهو ما يشير إليه القرآن في قول الله تعالى:{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71)}([[103]](#footnote-103)).

وأما الجانب الثاني فهو ما يشير إليه قول الله تبارك وتعالى:{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}([[104]](#footnote-104)).

ومن هنا يعلم – بالضرورة – أن الإنسان في آدميته لا يكون إنسانا بمادة الطين وحدها. مع تسليمنا بأن الله وحده قادر على كل شيء – وإذا ما صلة التوازن الإسلامي في طريقة العيش الحلال؟ يتضح ذلك في أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالجمع بين الجانبين المادة والروح، وإن غلب أحد الجانبين على الأخر اختل التوازن في ممارسة الحياة على النحو السليم الذي لا يشوبه فساد.

ومن هنا يدرك كل ذي بصيرة أن الدين الإسلامي إنما طلب من المسلم أن يقيم التوازن بين هذين الجانبين في طبيعة تكوينية. أي بين الجسد والروح. فهو يعطي الجسد حقه ولكن ليس على حساب الروح، ويعطي الروح حقها ولكن ليس على حساب الجسد. وإذاً فمهمة الإنسان هي إقامة هذا التوازن في طبيعته المزدوجة، يأكل ويشرب ولكن لا يسرف يصلي ويتعبد ولكن لا يعتزل العمل والإنتاج، ولا يعتزل المجتمع والحياة ولا يعطل ما منحه الله من ملكات وقدرات ومواهب وطاقات. أعلاها وأغلاها وأزكاها نعمة العقل تلك النعمة التي هي أنفس وأغلى ما يملكه كل مخلوق بشري.

ومعيار التوازن في الحياة تزنه بالقسطاس المستقيم آيات بينات من كتاب الله تعالى. وتزنه بالمعيار الصحيح أحاديث رسول الله فمن آي الذكر الحكيم قول الله تبارك وتعالى:"{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)}([[105]](#footnote-105))، {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29)}"([[106]](#footnote-106))، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)}"([[107]](#footnote-107))".

{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)}"([[108]](#footnote-108)) وأما الأحاديث فمنها تلك الكلمات الشفافة الحوارية التي يعلمها رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه أصحابه الأجلاء:((يا عبدالله بن عمر إن لله عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا)).

وحدث أن وعظ رسول الله أصحابه بكلمات وجلت منها القلوب فاجتمع عدد منهم واتفقوا على أن يصوموا النهار أبدا ويقوموا الليل ويعتزلوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا وزينتها. فخطب فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم قائلا:(ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم؟ أما إني ليس أمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا فإنه ليس في ديني ترك ذلك، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد) أو كما قال صلى الله عليه وسلم إلى آخر ما ورد في هذه الخطبة النبوية الشريفة.

فهذا هو هدي الإسلام الخالد حفظته الآيات وبسطته الأحاديث وأفاده الأدباء والعلماء ومفكرو الأمة ولم يزل معينا فياضا ينهل منه كل وارد إنه مجد بناه القرآن ومد رواقيه الرسول الكريم ونشره الرعيل الأول من المسلمين وسيظل نشره أمانة في أعناق المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو جهاد أبدي – {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)}([[109]](#footnote-109)).

والأدباء في كل مجتمع هم حملة لواء المعرفة، والشعر من الأدب ولكن أي أدب؟ إنه ذلك اللون الفني الذي يعبر عنه مدكرا الماضي هاتفا بالحاضر لا يلوي معناه إلا على العمل والإنتاج ليمكن لشرع الله في الأرض.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما لشعري على القديم يغار لا تقل راعني وخيب ظني أنا في مطلع القصيدة أحاكي فلئن قلت يا فؤادي أقصر فلى الكون كله نغمات خل شكواك مرة وتفاءل تشتكي حاضرا وتندب ماضٍ أملأ العين من مشاهد عصر وتقدم فان دينك أمر وتدبر فإن شرعك ينهى ليس ينهاك دينك إلا قد سئمنا جرس النشيد رتيبا أي معنى إذا أدركت عظيما ومضى قد وفي بذمة عهد أنت أولى بالعهد في عصر قوم أويجدي افتخارنا بجدود جسم الداء \للعيان مطبا أنقذ الناس من براثن قانو إن قبست الضياء سرت سويا لا تقل يحكم الأمور كبير فارق السن لا يعيب إناساً |  | مستهل في كل معنى يثار بدؤك الشعر يحتويه أدكار كل صوت أصداؤه تستعار إن دهري من شؤمه مستطار يا فؤادي لكل معنى شعار بك أزرت – في شؤمها الأشعار أو ما عاب شعرك الافتخار في أعاجيبه العقول تحار ليس فيه تراجع وانحسار أن تخوض الأمور وهي خسار عن فعال تعيبها أوزار رددته في عزفها الأوتار  غيبته في سفرها الأعصار فيه للناس عزة وانتصار ضيعتهم في دربها الأشرار وعلينا من الخنوع دثار كي يرى القلب ما ترى الأبصار ن ينوء منه الأوار أو أممت الظلام فهو عثار قد يساوي الكبار قوم صغار قد يهاب الصغار قوم كبار([[110]](#footnote-110)) |
|  |

وإذا فالتوازن في المجتمع الإسلامي إنما هو في العطاء والعمل من كل فريق على حسب ما يحسن، وإنما هو امتثال لا إفراط فيه ولا تفريط وإنما هو عطاء مستمر يؤتى ثماره وفق درب سوى لا ترى فيه عوجا ولا أمتا.

ومن هنا ندرك موقف الإسلام من الأدب بعامة، ومن الشعر بخاصة. وأنه موقف يتجلى فيه:((الصدق الفني الذي يحكم إطاره العقل والعاطفة والخيال معا في بُعد عن المبالغات المفرطة التي يلفظها الحس الصادق، وفي بُعد عن التكلف الثقيل عن النفس والتصنع المنفر للحس والمبعد عن الطبع مع المحافظة على سلامة اللغة رونقا وديباجة لكي تظهر محاسن الأدب وتبرز لطائفه التي تتفاعل معها الأحاسيس))([[111]](#footnote-111)).

وهذا من حيث تجلى النتاج الأدبي ونضجه وتكامله فيما يتناول البناء الفني شكلا ومضمونا.

أما من حيث المنهج فمعلوم ((إن نظرة الإسلام إلى الأدب لم تتناول موقفه من الفنون الأدبية جميعها، لأن كثيرا من هذه الفنون جد على المسلمين بعد الكتاب والسنة سوى الشعر والقصة والخطابة، فهذه ألوان صاحبت الحياة الأدبية عند العرب في جاهليتهم وبعد إسلامهم وكان للإسلام منها موقف واضح محدد))([[112]](#footnote-112)).

أما القصة والخطابة فموقف الإسلام منهما موقف يتجلى فيه سلامه النقد وصحة التوجيه ويكفى في ذلك خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء من بعده وخطب الولاة وقادة الجيوش الإسلامية فإن هذه الخطب قد سارت على نحو مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول في هذا الشأن وحسبنا في ذلك ما أوردناه من نصوص خطابيه لعدد من الخطباء والأنبياء وحسبنا في ذلك ما أشرنا إليه من الخصائص التي تميز بها كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القدوة الحسنة للمسلمين في كل شيء.

وأما القصة فلا تقل شأنا عن الخطابة غير أن هذا اللون لم يكثر كثرته إلا في عصر النهضة الحديثة وذلك من حيث المنهج أما من حيث الصدق الفني والنضج الأدبي فيكفى في ذلك ما سقناه من نصوص القصة الإسلامية من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما الشعر فلون تختلف نظره الإسلام إليه عن هذين اللونين: أعني الخطابة والقصة.

ونظراً إلى خطورته في حياه العرب والمسلمين أدبيا وفكريا فقد حدد الإسلام موقفه منه فنيا ومنهجيا.

وقد أشرنا إلى شيء من هذا الموقف فيما سبق ذكره ومن حيث المنهجية فإن نظرة الإسلام إلى الشعر تقوم على المواقف والحوادث التالية:

1. ما ثبت عن رسول الله في سماعه الشعر ومدحه إياه وطلب المزيد من إنشاده.

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:"كان رسول الله يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله أو ينافح، ويقول الرسول الكريم حول هذا الشأن:"إن الله تعالى يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ".

1. أن الإسلام أحدث تغييرا في وظيفة الأدب ومنه الشعر فلم يبق هذا اللون متعة يستمتع بها الناس في أنديتهم وأسمارهم([[113]](#footnote-113)) بل رقى بفن القول حتى شده إلى محور الجهاد في الله تعالى.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله قال:((جاهدوا المشركين بـأنفسكم وأموالكم وألسنتكم))([[114]](#footnote-114)) إلى غير ذلك من المواقف والأدلة التي تحدد موقف الإسلام من الشعر كهجاء الشعراء للمشركين وذب الشعراء عن عقيدة الإسلام، ومن بدائع هذا اللون الذي يعد من عيون الشعر وروائعه: قصيدة إسلامية لشاعر الإسلام: كعب بن مالك الأنصاري، ذلك الشاعر الفحل الذي ذب عن الإسلام بسيفه وشعره، وبسط محاسن الإسلام وأخلاق الرسول الكريم في كثير من قصائده الإسلامية التي لم تزل باقية أبد الدهر تشهد بمآثر ذلك الشاعر، وتشهد بمآثر المسلمين وبطولاتهم ومواقفهم من الدعوة الإسلامية أيام الفتوحات والغزوات النبوية التي خاض غمارها صحابة رسول الله يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه، يقول كعب رضي الله عنه وأرضاه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمر الإله بربطها لعدوه لتكون غيظا للعدو وحيطا ويعيننا الله العزيز بقوة ونطيع أمر نبينا ونجيبه إن الذين يكذبون محمدا |  | في الحرب إن الله خير موفق للدار أن دلفت خيول النزق منه وصدق الصبر ساعة نلتقي وإذا دعا لكريهة لم نسبق كفروا وضلوا عن سبيل المتقي |

إن هذه نغمات إسلامية تحس في نبراتها وتلمس في نظم ألفاظها وحروفها معاني كتاب الله سبحانه وتعالى فقول كعب رضي الله عنه: أمر الإله بربطها لعدو.. إنما هو مستفاد من قول الله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}([[115]](#footnote-115)).

واستمع إلى رائعته في إجلاء بني النضير ومصرع زعيمهم كعب بن الأشراف اليهودي الذي كان من ألد خصوم النبي والمسلمين:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لقد خزيت بغدرتها الحبور وذلك أنهم كفروا برب..... وقد أوتوا معا فهما وعلما فقالوا: ما أتيت بأمر صدق فقال: بلي لقد أديت حقا فمن يتبعه يهد لكل رشد فلما أشربوا غدرا وكفروا |  | كذاك الدهر ذو صرف يدور عزيز أمره رب كبير وجاءهم من الله النذير. وآيات مبينة تنير... يصدقني به الفهم الخبير ومن يكفر به يجز الكفور وحاد بهم عن الحق النفور..... |

إلى أخر ما جاء في هذا النص الذي سنقف على خصائصه الفنية في وضع آخر من هذه الدراسة، وخلاصة ما يمكن أن نقول عنه – هنا: إنه شعر العاطفة والعقل خدمة للدعوة، ونشرا لدين الله تعالى في الأرض.

وحكمة الشاعر كعب رضي الله عنه حكمة رجل مؤمن مصدق بكل ما جاء به النبي الكريم من عند الله تعالى، إنها حكم مستمدة من كتاب الله سبحانه وتعالى يتسم بها شعر كعب كما ورد في أبيات هذه القصيدة وفي قوله من أخرى:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أبلغ قريشا وخير القول أصدقه إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا وإن ترونا أمرنا في رأيكم سفها |  | والصدق عند ذوي الألباب مقبول والقتل في الحق عند الله تفضيل فرأي من خالف الإسلام تضليل |

ومن حكمه الصائبة قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ومن يفعل الحسنات لله يشكرها وإنما قوة الإنسان ما عمرت إن يسلم المرء من قتل ومن مرض فإنما هذه الدنيا وزينتها... |  | والشر بالشر عند الله سيان عارية كارتداد الثوب للعاني في لذة العيش ابلاء الجديدان كالزاد لا بد – يوما – أنه فان |

إن هذه بعض روائع الشاعر المسلم كعب بن زهير رحمه الله ورضي عنه وأرضاه، إنها عقود الجمان وأصداف الدر، وجوهر العقود.

أما ألفاظ الشاعر من حيث الجزالة والفخامة فإنها لبنات مرصوصة يأخذ بعضها بحجز البعض.

وأما من حيث السهولة والعذوبة فألفاظ من نهر جار سلسبيل ومن حيث الوعورة والغرابة فشعر كل ألفاظه وجمله وتراكيبه بناء فني خال من التكلف والتقعر، ولا ريب في توافر هذه الخصائص في شعر كعب وغيره من شعراء الإسلام لأن دين الله تعالى ثقل نفوسهم وهذب طباعهم وألان عريكتهم وميز بينهم وبين غيرهم في السلوك مظهرا ومخبرا، فجاء أدبهم أدبا حيا خالدا سحا غدقا يهتف بالإيمان من أجل الإيمان ويزرع الخير في الحياة للأحياء حبا وأمنا وسلاما ورعاية لأنه دين الله تعالى للناس أجمعين.

ولكعب رضي الله عنه باع طويلة في الشعر أورد أخباره صاحب الأغاني: من ذلك قصيدته في حادثة قتل عثمان رضي الله عنه، فقد وقف كعب على مجلس الأنصار في مسجد رسول الله وأنشد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| من مبلغ الأنصار عني آية إن قد فعلتم فعلة مذكورة الله يعلم أنني لم أرضه... يا لهف نفسي إذ يقول: ألا أرى قوم يرون الحق نصر أميرهم إن يتركوا فوضى يروا في دينهم فليعلين الله كعب وليه محصن الضرائب ماجدا أعراقه عرفت له عليا معد كلها من معشر لا يغدرون بذمة يعطون سائلهم ويأمن جاره |  | رسلا تقص عليهم التبيانا كست الفضوح ولبدت الشنئانا كم صنيعا يوم ذاك وشانا نفرا من الأنصار لي أعوانا ويرون طاعة أمره إيمانا أمراً يضيق عنهم البلدانا وليجعلن عدوه الذلانا من خير خندف منصبا ومكانا بعد النبي الملك والسلطانا كانوا بمكة يرتعون زمانا فيهم ويرمون الكماة طعاما |

ومما أورده صاحب الأغاني من أخبار كعب: أن قريش كان يهجوهم ثلاثة نفر من الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحه قال: وكان حسان وكعب يعارضان قريشا بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحه يعيرهم بالكفر، وينسبهم إليه، ويعلم أن ليس فيهم شيء شر من الكفر فكانوا في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب وأهون شيء عليهم قول ابن رواحه، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحه.

وكان كعب بن مالك رضي الله عنه شاعرا فحلا مقدما فها هو يستأذن رسول الله في هجاء الأعداء، فقد حدث سماك بن حرب قال: أتي إلى رسول الله فقيل إن أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب يهجوك فقام ابن رواحه فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه، فقال له: أنت الذي تقول:((فثبت الله؟ قال: يا نعم يا رسول الله أنا الذي أقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فثبت الله ما أعطاك من حسن |  | تثبيت موسى ونصرا كالذي نصرا |

فقال وأنت فعل الله بك مثل ذلك؟ قال: فوثب كعب بن مالك فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه فقال: أنت الذي تقول:((همت)) قال: نعم يا رسول الله أنا الذي أقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| همت سخينة أن تغالب ربها |  | وليغلبن مغالب الغلاب |

فقال : أما إن الله لم ينس لك ذلك.

وها هو رسول الله يحكم بحسن شعر كعب رضي الله عنه فقد روى الشعبي: أنه لما انهزم المشركون يوم الأحزاب فقال يا رسول الله : إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم، ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى ويهجونكم، فمن يحمي أعراض المسلمين؟ فقال عبدالله بن رواحه رضي الله عنه فقال: أنا فقال إنك لحسن الشعر، ثم قام كعب فقال أنا، فقال وإنك لحسن الشعر وحدث جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله قال: أمرت عبدالله بن رواحه فقال وأحسن، وأمرت حسانا فشفي واشتفى.

ولما سأل معاوية بن أبي سفيان جلساءه عن أشجع بيت وصف به شاعر قومه قال روح بن زنباع قول كعب بن مالك:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نصل السيوف إذا قصرن بخطونا |  | قدما ونلحقها إذا لم تلحق |

ومع هذه المذهبة العينية لكعب رضي الله عنه أنها أبيات جديرة بالدراسة والنظرة الفاحصة، إنها قصيدة لشاعر أحبه رسول الله لما له من مواقف تشهد بصدق إيمانه، ورسوخ العقيدة في نفسه هذه القصيدة نظمها كعب في الرد على عبدالله بن الزبعري قبل إسلام هذا الأخير.

اشتملت وحداتها العضوية على صور أدبية فنية. صاغها – كعب رضي الله عنه – بريشة الشاعر المبدع. فجاءت قصيدته خطابا للعقل والعاطفة متسمة بالواقعية والتاريخ والصدق الشعوري. وهذه الخصائص مجتمعة تؤكد ثبوت الشعر الإسلامي وقوته وتفاعله وأثره وتأثيره وإن ما يراه بعض النقاد قدماء ومعاصرين عن أن الشعر الذي نظمه شعراء الإسلام من الرعيل الأول فقد بعض السمات الفنية من توهج العواطف، والإبداع في الصورة، وسعة الخيال، وتميز بخصائص أخرى كفطور العاطفة ونضوج الصورة وضيق الخيال، حكم فيه تسرع والفيصل فيما ذهب إليه هؤلاء النقاد أن نستمع إلى شيء من قصيدة كعب فهي البرهان على خلاف ما يرمون إليه.

يقول رضي الله عنه وأرضاه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا هل أتى غسان عنا ودونهم صحار وأعلام كأن قتامها مجالدنا عن ديننا كل فحمة ولكن ببدر سئلوا من لقيتم وأنا بأرض الخوف لو كان أهلها إذا جاء منا راكب كان قوله: نجالد لا تبقي علينا قبيلة وقال رسول الله لما بدوا لنا فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى ضربناهم حتى تركنا سراتهم ونحن إناس لا نرى القتل سبة بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله |  | من الأرض خرق سيره متنعنع من البعد نقع هامد متقطع مذربة فيها القوانس تلمع من الناش والأنباء بالغيب تنفع سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا ذروا عنكم هول المنيات وأطمعوا وليس لأمر حمه الله مدفع كأنهم بالقاع خشب مصرع على كل من يحمى الذمار ويمنع ولا نحن مما جرت الحرب نجزع |

إلى أخر ما قال كعب رضي الله عنه – في هذه الرائعة الحماسية التي تقارب أبياتها خمسين بيتا، كل بيت يعبر عن معنى سام شريف تتلاحق فيه الصور حتى كأن السامع يشاهد المعركة الإسلامية عيانا.

وقد أشرنا إلى شيء من خصائص شعر كعب فيما سبق ولعله يكفي في الوقوف على مواطن الإبداع في شعره([[116]](#footnote-116)).

وإذا كانت هذه الدراسة إنما تعنى بتفحص مواطن الإجادة والإبداع في عدد من نصوص الخطابة والقصة والشعر، واستجلاء الخصائص الفنية في كل نص يختار. إذا كانت الغاية من هذه الدراسة هو ما ذكرنا فإنه يحسن الوقوف على تبين المادة الأدبية التي يستمد منها الشعر الإسلامي معانيه ومبانيه، ويحسن الوقوف – أيضا – على أغراض هذا اللون من الشعر.

ولإن قيل: هل هناك فرق بين هذا الشعر وغيره من نصوص الشعر العربي في المادة والغرض؟؟ لإن قيل هذا فالجواب أنه لا فرق بين نصوص الشعر من حيث القوالب فهذا وذاك بلسان عربي مبين، ولكن هناك فرق بين اللونين من حيث الغاية والغرض.

ومن هنا نجد نصوص الشعر ذي النزعة الإسلامية متميزا على غيره من نصوص الشعر في هذا الشأن، لأن الشعر الذي غايته بسط محاسن الشريعة الإسلامية والذب عنها وتوجيه المجتمع وخدمة الفضيلة لا بد أن يكون متميزا في شكله ومضمونه.

ولا بد أن يرقى في خصائصه الفنية إلى ذروة الإجادة والإبداع لأنه ذو كلمة طيبة والكلمة الطيبة لا تخدم إلا معنى غائيا طيبا ولإن قيل: لكن مادة الشعر العربي كله هو الكون ومن فيه ومن عليه فلا فرق بين نصوص الشعر التي تستمد معانيها وأغراضها من عوالم الطبيعة صامتها ومتحركها.

فالجواب نعم لا فرق في كنه المادة حجما ولونا. ولكن هناك فرق في تسخير هذه المادة وتطويعها لخدمة الفكر والأدب بما ينفع الناس.. فهل نقرن قول الشاعر العربي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| دع المساجد للعباد تسكنها |  | وقم بنا نحو حانوت ومزمار |

هل نقرن هذا البيت بقول الشاعر الإسلامي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فدع عنك سوءات الأمور فإنها واد زكاة الجاه وأعلم بأنها وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم |  | حرام على نفس التقي إرتكابها كمثل زكاة المال تم نصبها فخير تجارات الكراء إكتسابها([[117]](#footnote-117)) |

إنه فرق ما بين الثرا والثريا. وهل نقرن نظرة الشاعر العربي والشاعر الإسلامي سواء كان عربيا أو غير عربي هل نقرن نظرة الشاعرين إلى الحياة حين ينظر إليها الشاعر المسلم على أنها وسيلة لا غاية. وينظر إليها الشاعر غير المسلم أو الشاعر المسلم الذي لا ينزع في شعره إلى معاني الإسلام فينظر إلى الحياة على إنها غاية يتمتع بها الإنسان ويرضي عواطفه ويشبع غرائزه بما أبيح وبما حرم. ادعاء بأن هذا من حرية الفكر والأدب. لو صح أن نقرن هذه النظرة بتلك لما صح أن يكون هناك قانون وتشريع يهدي الناس إلى ما يقوم حياتهم ويسعدهم ويربطهم بآخرتهم التي هي السعادة والحياة الصحيحة والأبدية.

ومن هنا لا يوجد فرق في مادة الشعر العربي سواء كان من اللون الإسلامي أو غيره. فإن الكون ومن فيه ومن عليه هو مادة الشعراء ولكن تختلف النظرة من حيث تسخير هذه المادة.

ولا بد أن تختلف الأغراض الشعرية عن الشعراء تبعا لاختلاف نظراتهم فالمرآة – مثلا – إحدى مواد العطاء الشعري لكنها في نظرة الشاعر الذي لا يزن الكلمة الشاعرية بمعيار الإسلام ونظرته إنما هيا ألعوبة ومتعة وتسلية ووصف مجرد. لكنها في نظرة الشاعر المسلم وروايته الأدبية بيت طمأنينة وسعادة وسكون وعفة وطهر.

ولذلك نجد أغراض الشعر الإسلامي من أجل الأغراض وأرفعها وأشرفها ويكفي أنه فوق أغراضه التي تتناول عفة المرأة وطهرها وتتناول وصف الطبيعة للعبرة والعظة وإبراز عظمة الخالق. يكفي أن أغراض هذا الشعر تتوج بشرح محاسن الشريعة والذب عن رسول الإسلام والدعوة إلى الجهاد ووصف البطولات الإسلامية. وتجسيد غايات الدعوة إلى دين الله ورثاء شهداء الإسلام وهجاء أعداء الله والعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق. ومن نصوص هذا الشعر قول الشاعر الإسلامي كعب بن زهير في رائعته الإسلامية "بانت سعاد" تلك الرائعة التي خص بها الشاعر مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بانت سعاد فقلبي اليوم متبول وما سعاد غداة البين إذ رحلوا هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة تجلوا عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت شجت بذي شبم من ماء محنية تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه واها لها خلة لو إنها صدقت لكنها خلة قد سيط من دمها فما تدوم على حال تكون بها ولا تمسك بالوعد الذي زعمت كانت مواعيد عرقوب لها مثلا فلا يغرنك ما منت وما وعدت أرجو وأمل أن يعجلن في أبد أمست سعاد بأرض لا يبلغها ولا يبلغها إلا عذافرة... من كل ناضجة الذفرى إذا عرقت ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق ضخم مقلدها فعم مقيدها.. حرف أخوها أبوها من مهجنه عبرانة قذفت باللحم عن عرض كأنما فات عينيها ومذبحها.. تمر مثل عسيب النخل ذا خصل قنواء في حريتها للبصير بها غلباء وجناء علكوم مذكرة يمشي القراد عليها ثم يزلقة وجلدها من الطوم لا يؤبسه تخدى على يسرات وهي لاهيه سمر العجايات يتركن الحصى زيما كأن أوب ذراعيها إذا عرقت يوم يظل به والحرباء مصطخما وقال للقوم حاديهم وقد جعلت شد النهار ذراعا عيطل نصف نواحة رخوة الضبعين ليس لها تفرى اللبان يكفيها ومدرعها تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم وقال كل خليل كنت آمله.. فقلت: خلوا سبيلي لا أباليكم كل ابن أنثى وإن طالت سلامته أنبئت أن رسول الله أوعدني مهلا هداك الذي أعطاك نافلة لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أني أقوم مقامة لا يقوم له لظل يرعد إلا أن يكون له حتى وضعت يميني لا أنازعه ولهو أهيب عندي إذ ألمه من ضيغم من شراء الأسد محدده يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما تظل منه حمير الوحش ضامرة إذا يساور قرنا لا يحل له ولا يزال بواديه أخو ثقة إن الرسول لنور يستضاء به في عصبة من قريش قال قائلهم ذالوا فما ذال أنكاس ولا كشف شم العرانين أبطال لبوسهم بيض صوابغ قد شكت لها حلق يمشون مشي الجمال البزل يعصمهم لا يفرحون إذا نالت رماحهم لا يثبت الطعن إلا في نحورهم |  | متيم إثرها لم يفد مكبول إلا أغن غضيض الطرف مكحول لا يشتكي قصر منها ولا طول كأنه منهل بالراح معلول صاف بأبطح أضحى وهو مشمول من صوب غادية بيض يعاليل موعودها أو لو أن النصح مقبول فجع وولع وإخلاف وتبديل كما تلون في أثوابها الغول إلا كما يمسك الماء الغرابيل وما مواعيدها إلا أباطيل إن الأماني والأحلام تضليل وما لهن طوال الدهر تعجيل إلا العتاق النجيبات المراسيل فيها على الأين أرقال وتبغيل عارضتها طامس الأعلام مجهول إذا توقدت الحزان والميل في خلقها عن بنات الفحل تفضيل وعمها خالها أدماء شمليل ومرفق عن ضلوح الزور مفتول من خطمها ومن اللحيين برطيل بعترز لم تخنه الأحاليل عتق مبين وفي الخدين تسهيل في دفها سعة قدامها ميل عنها لبان وأقراب زهاليل طلح بضاحية المنين مهزول زوابل وقعهن الأرض تحليل ولا يقيها رؤوس الأكم تنعيل وقد تلفح القور العساقيل كأن ضاحية بالنار مملول ورق الجنادب يرقد الحصى قيلوا قامت فجاوبها ورق مثاكيل لما نعى بكرها الناعون معقول مشقق عن تراقيها رعابيل إنك باين أبي سلمى لمقتول لا ألهينك إني عنك مشغول فكل ما قدرا الرحمن مفعول يوم على آلة حدباء محمول والعفو عند رسول الله مأمول القرآن فيها مواعيظ وتفصيل أذنب ولو كثرت فيه الأقاويل أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل من النبي بأذن الله تنويل في كف ذي نقمات قيله القيل وقيل إنك منسوب ومسئول بباطن عثر غيل دونه غيل لحم من القوم مغفور خراذيل ولا تمشي بواديه الأراجيل أن يترك القرن إلا وهو مجدول مطرح البز والدرسان مأكول وصارم من سيوف الله مسلول ببطن مكة لما اسلموا زولوا عند اللقاء ولا ميل معازيل من نسج داوود في الهيجاء سرابيل كأنها حلق القفعاء مجدول ضرب إذا عرد السود التنابيل قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا وما لهم عن حياد الموت تهليل([[118]](#footnote-118)) |

هذه رائعة الشاعر والصحابي (كعب بن زهير) في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم رائعة تربوا أبياتها على ستين بيتا حفظتها مصادر الأدب ما بين زيادة ونقص وتباين في الرواية والذي يعنينا من هذه القصيدة الإسلامية الوقوف على مواطن الإبداع في معانيها ومبانيها.

لقد استهل الشاعر (كعب) قصيدته بمطلع غزلي عذري عفيف على عادة الشعراء القدماء ويصل هذا المطلع إلى أربعة عشر بيتا من قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بانت سعاد فقلبي اليوم متبول |  | متيم إثرها لم يجز مكبول |

إلى قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمست سعاد بأرض لا يبلغها |  | إلا العتاق النجيبات المراسيل |

وبعد هذا المطلع يدلف الشاعر إلى وصف ناقته على عادة الشعراء قديما إذ لهم بالنياق شأن كبير في وصف سيرهن وأجسامهن وطباعهن ووصف المفاوز والفلوات التي تقطعها الناقة وصولا بذي الحاجة إلى غرضه وتحقيق مراده.

ويشتمل هذا الوصف على واحد وعشرين بيتا من قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ولا يبلغها إلا عذافرة... |  | فيها على الأين أرقال وتبغيل |

إلى قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تفري اللبان يكفيها ومدرعها |  | مشقق عن تراقيها رعابيل |

ثم يبدأ نفس القصيدة في الغرض منها وهو مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأخذ الشاعر في إبداء عذره عما اقترفه في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل في الإسلام، ويمهد لهذا العذر بأربعة أبيات هي قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تسعي الوشاة بجنبيها وقولهم وقال كل خليل كنت آمله.. فقلت: خلوا سبيلي لا أباليكم كل ابن أنثي وإن طالت سلامته |  | إنك يابن أبي سلمي لمقتول لا ألهينك إني عنك مشغول فكل ما قدر الرحمن مفعول يوم على آلة حدباء محمول |

وبعد هذا التمهيد للغرض يبدأ الشاعر في المديح موجها الخطاب إلى رسول الهدى لقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نبئت أن رسول الله أوعدني مهلا هداك الذي أعطاك نافلة |  | والعفو عند رسول الله مأمول القرآن فيها مواعيظ وتفصيل |

ويستمر مديح الشاعر وثناؤه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومديح صحابته والنور الذي جاء به من عند الله إلى أخر القصيدة.

وإذا تأملنا الخصائص الفنية الرائعة فإن القول عن قوالبها يستدعي الوقوف على ما حوته هذه القوالب من معان شريفة سامية. فإن الإبداع لا يقف عند حد اللفظ السهل الكريم أو المعنى السامي الشريف وإنما لكل منهما أثره في إيجاده الشاعر وتلك مسألة عرضت لها مصادر النقد الأدبي القديم وبسطتها على نحو مما جاء في البيان والتبيين للجاحظ، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني والمثل الثائر لابن الأثير. حتى انتهى عبدالقاهر الجرجاني بهذه القضية إلى أن المزية كل المزية ليست في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده وإنما في النظم.

ومن هنا فإن مزايا الإبداع في قصيدة (كعب بن زهير) لا تقف عند حد الإجادة في الألفاظ وخصائصها، ولا تقف عند حد الإجادة في المعاني وخصائصها وإنما تبرز ملامح الجودة والإبداع في كل واحدة من وحدات هذه القصيدة العصماء لفظا لفظا وتركيبا تركيبا ومعنى وخيالا وعاطفة وصورة أدبية، الأمر الذي حدا بعلماء النقد والأدب عبر تاريخ الفكر الإسلامي إلى تناول هذه القصيدة بالشرح والنقد والتحليل.

ولعل أكبر خصوصية تطلعنا في أسلوب القصيدة هو إكثار كعب رضي الله عنه من الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى تقصي معاجم اللغة للإبانة عن معانيها. وبخاصة ما ورد من كلمات في وصف الناقة وسيرها والطريق التي تسلكها فقد جاء في عدد من أبيات القصيدة ما يزيد على ثلاثين لفظة منها:

عذافرة. أرقال، تبغيل، الذفري، لهق، الحزان، شمليل، عبرانة، برطيل، قنواء، علكوم، زهاليل.

أطوم، الأكم، العساقيل، مصطخما، مثاكيل، رعابيل، خراذيل، معازيل، القفعاء، التنابيل.

وهذا الإغراب في هذه الألفاظ لم يكن وليد صنعة وتكلف وإنما هو نسيج الشاعر المطبوع الذي يصور بيئته بالحس واللمس واللسان فالبيئة التي نشأ فيها كعب بن زهير بيئة جاهلية وهذه القصيدة جاءت أول دخوله في الإسلام حيث لم يزل حديث العهد بحياة الجاهليين.

وحين أسلم وانتقل من حظيرة الجاهلية إلى حياة الإسلام لانت عريكته وسلس طبعه وانقادت له لغة القريض على نحو من هدي الإسلام الذي يهذب النفوس والطباع فيلين مع ذلك الفن الذي يزاوله الشاعر مع فخامة وشدة أسر فاسمع لقوله من شعره الإسلامي حين حسن إسلامه فرق ولان وسهل وانسابت له المعاني الإسلامية من ذلك قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لو كنت أعجب من شيء لأعجبني يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والمرء ما عاش محدود له أمل |  | سعى الفتى وهو مخبؤ له القدر والنفس واحدة والهم منتشر لا ينتهي العيش حتى ينتهي الأثر |

وقال ابن الأثير ومما يستحسن له قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مقالة السوء إلى أهلها ومن دعا الناس إلى ذمة |  | أسرع من منحدر سائل ذموه بالحق والباطل([[119]](#footnote-119)) |

ولنعد إلى قصيدته "بانت سعاد"

في هذه الرائعة يتجلى الإبداع في وحدات كل بيت يحمل صورة أدبية وبخاصة حين دخل الشاعر كعب في الغرض الرئيسي منها وهو مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتبرز ملامح الإبداع في توفيق الشاعر إلى ما يحب أن يمدح به النبي الكريم، فإن أسمى ما يمدح به محمد صلى الله عليه وسلم أنه النور الفائض على العالمين:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن الرسول لنور يستضاء به |  | مهند من سيوف الله مسلول |

ومن أرفع الصفات وأطيب الخلال أن يثني على محمد صلى الله عليه وسلم بالشجاع والعفو عند المقدرة.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| نبئت أن رسول الله أوعدني |  | والعفو عند رسول الله مأمول |

ويتجلى الإبداع في وحدات القصيدة لفظا لفظاً وتركيبا تركيبا فلم يغرب ولم يتقعر ولم يتكلف وإنما جاءت القصيدة نظما متساوقا كل لفظة تليق بالمعنى الذي يحمله البيت وتجسده الصورة فليس مفهوم الإبداع أن يأتي الشاعر بالمعاني المبتكرة دون أن يسبقه إليها من قبله من الشعراء. وإنما الإبداع هو أن يأتي الشاعر بالصورة الأدبية في إطار واضح جلي قوي اللفظ جميله عميق المعنى لا ألغاز فيه ولا غموض ومما يدل على إبداع الشاعر كعب بن زهير في رائعته "بانت سعاد" أن هذه القصيدة بلغت من الشهرة والذيوع مبلغا كبيرا، وأصبحت نموذجا يحتذى في المدح، وتولاها بالشرح والتحليل كثير من الأدباء، لأن فيها – كما يقول الدكتور/ الحوفي – في كتابه "الإسلام في شعر شوقي" ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها في الجاهلية كحديث كعب رضي الله عنه عن القرآن الكريم، وعن هداية النبي صلى الله عليه وسلم للناس وتأييده من ربه، وبذلك فتح الباب لمن جاء بعده ليسير على نهجه، وفي ذلك خدمة كبرى للإسلام([[120]](#footnote-120)).

وآية الإبداع والإجادة في قصيدة كعب بن زهير ذلك المعنى الإسلامي الرائع حيث فوض الأمور كلها إلى الله وحده وهذا محض الإيمان بالدين الجديد الذي آمن به، ويتجلى هذا المعنى في قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فقلت: خلوا سبيلي لا أبالكم |  | فكل ما قدر الرحمن مفعول |

ويتبع ذلك المعنى معاني إسلامية فتق أكمامها كعب لمن جاء بعده كقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به وكقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مهلا هداك الذي أعطاك نافلة |  | القرآن فيها مواعيظ وتفصيل. |

وكثيرا تلك النصوص من الشعر الإسلامي منذ عهد الدعوة المحمدية إلى اليوم عند شعراء الإسلام الذين لا يزالون ينافحون عن الإسلام ويشرحون معاني العقيدة ويبسطون محاسنها للناس فلنقف على شيء من هذه النصوص وقفات مع بعض شعراء الدعوة الإسلامية وبعض النماذج من شعرهم الإسلامي، وذلك اللون الذي لم يزل يهتف به الوجود منذ فجر الدعوة الإسلامية على يد القائد والمعلم الأول رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه وإلى اليوم لم يزل يهتف هذا الصوت، ولم تزل تهتف هذه الحناجر معيدة إلى الأذهان والقلوب صوت شاعر الإسلام شاعر النبي الكريم "حسان بن ثابت رضي الله عنه":

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عدمنا خيلنا إن لم تروها ينازعن الأعنة مصعدات |  | تثير النقع موعدها كداء تلطمهن بالخمر النساء |

هذا الصوت لم يزل يدوي عبر كل ناحية من بلاد الإسلام كلما حزب أمر وجد آخر فروسية إسلامية، وبطولات إسلامية، وصبر وثبات في الملمات والشدائد والمواقف، صبر وثبات عن يقين وإيمان برسالة السماء إلى الأرض صبر وثبات وبلاء عن يقين وإيمان بما للمسلم الصابر المحتسب الذي يرزق الشهادة في سبيل الله تعالى فلنتأمل ذلك المشهد الإيماني الذي عاشه.

شهيد الإسلام وشاعر الإسلام: خبيب بن عدي رضي الله عنه وقد سيق إلى الموت الذي خير بينه وبين الارتداد عن دين الإسلام فاختار الموت طمعا في نيل الشهادة، ولم يقف هول الموقف دون الشاعر الإسلامي خبيب رضي الله عنه فقد صور ما حل به أبدع تصوير، وفي ذلك يقول رضي الله عنه وأرضاه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا وقد قربوا أبناءهم ونساءهم وكلهم يبدى العداوة جاهلا إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي وذلك في شأن الإله وإن يشأ وقد خيروني الكفر والموت دونه وما بي حذار الموت أني لميت فلست بمبد للعدو تخشعا ولست أبالي حين أقتل مسلما |  | قبائلهم واستجمعوا كل مجمع وقربت من جذع طويل ممنع على لأني في وثاق بمضيع وما جمع الأحزاب لي عند مصرعي يبارك على أوصال شلو ممزع وقد هملت عيناي في غير مجزع ولكن حذارى حجم نار ملفع ولا جزعا أني إلى الله مرجعي على أي جنب كان في الله مصرعي |

ذلك الموقف الهائل، ذلك الصوت المتأجج، تلك العاصفة المشبوبة الثائرة، ذلك الوهج الذي أحرق قلوب الكفر باختيار الشاعر،ـ ما لم يخطر في أذهانهم، ويح خبيب لقد اختار الموت على الكفر، بل هنيئا لخبيب لقد اختار ما اختاره الله له، لقد آثر الآخرة على زخرف الدنيا وزينتها فصار إلى الله تعالى مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

هذا الصوت الشاعري ولم يزل يفوه به سلاح المجاهدين، ويردده أصداء تكبيرهم ذوداً عن الإسلام وأهل الإسلام، ومقدسات الإسلام.

يقول الشاعر الإسلامي المعاصر ((يوسف العظم)):

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هذه خفقة قلب في الحنايا خطها نسر جريح شامخ بأت في الأقصى يناجى جرحه فمتى يبسم للكون غدى |  | ودماء قد تنزت من جراحي نهشته الطير من كل جناح يالحطين تباهي بصلاح ومتى يشرق للدنيا صباحي؟ |

هذه شاعرية الأديب المسلم، وهذه عواطفه المضمخة بالعطاء الثر فهل كان الأدب الإسلامي بمعزل عن الحياة وواقع الحياة، إليك صدى هذه الواقعية التي لم يزل جسد الأمة الإسلامية يئن ويشكو من نهشتها وثقلها:

|  |
| --- |
| كسرنا قوس حمزة عن جهالة وحطمنا بلا وعي نباله فمزقنا العدو ولا جهاد وشردنا الطغاة ولا عدالة وباتت أمة الإسلام حيرى وبات رعاتها في شر حالة فلا الصديق يرعاها بحزم ولا الفاروق يورثها فعاله ولا عثمان يمنحها عطاء..... ويرخص في سبيل الله ماله ولا سيف صقيل من علي يفيؤنا إلى "عدن" ظلاله ولا زيد يقود الجمع فيها لحرب أو يعد لها رجاله ولا القعقاع يهتف بالسرايا فتخشى ساحة الهيجا نزاله ولا حطين يصنعها صلاح طوي الجبناء في خور هلاله سرى صوت المؤذن في حمانا وقد فقت مآذننا بلاله.... وأقصانا يدنسه يهود.... ويعبث في مرابعه حثالة نشد رحالنا شرقا وغربا وأولى أن نشد له رحاله([[121]](#footnote-121)) |

وإذا كانت هذه المواقف الإسلامية الخالدة إنما تعبر تعبيرا صادقا عن شعر الدعوة الإسلامية وجهاد المسلمين عبر تاريخهم الطويل، إذا كان الأمر كذالك فإن من أجل الموضوعات التي ترسمها الشعراء الإسلاميون موضوع شعر الجهاد، وهذا اللون من الشعر يكاد يكون أقل حظا من الذيوع إذا قيس بأغراض وموضوعات الشعر الأخرى، وقد كان المنتظر لهذا الشعر أن يسبق سواه، لأنه يمس شغاف القارئ المسلم، ويعبر أصدق تعبير عن روح الحمية الصادقة والحماسة المتدفقة، فقد جاء الإسلام بمعان جديدة غيرت مجرى التاريخ ووجه الحياة الإنسانية، وأقامت للبشرية صرحا عاليا من المثل الرفيعة والقيم المثالية.

وقد تغلغلت هذه المعاني، وهذه القيم، في نفوس الصدر الأول من رجال الإسلام وأبطاله وأعلامه فهاموا بها وأشربوا تطبيقها في دنيا الواقع دفاعا عن العقيدة وافتداء لها بكل غال ونفيس، ولذلك نطق شعراء الإسلام وخطباؤه في تلك الحقبة من الزمن وفيما وليها من عهود الإسلام، نطقوا بما يعبر عن هذه المعاني مستمدين عطاءهم الفكري من فيض القرآن الكريم والسنة النبوية الخالدة، فصوروا معارك الفتوحات الإسلامية، ووزنوا الفضائل الإنسانية بميزان الإسلام داعين إلى التضحية والفداء وسمو الروح والصبر والثبات أمام الأعداء.

وشعر الجهاد في الأدب الإسلامي ممتد الرواق من عهد النبوة المحمدية وعهود الخلفاء الراشدين وسلف الأمة من اقتدى بهدي رسول الله ، وطبق القرآن الكريم والسنة النبوية منهجا وشريعة ونظام حياة.

إن على مؤرخي الأدب في العصر الحديث وعلى نقاد الشعر أن يقفوا وقفة طويلة متأملة في ذلك العطاء الذي حفظته لنا كتب التاريخ والسير ودواوين الشعراء، على هؤلاء جميعا أن يفسحوا في تاريخهم التحليلي فيوجدوا مجالا لشعر الدعوة الإسلامية تحليلا تفسيرا ونقدا هادفا بناء، وأن يتجاوزوا دواوين الشعراء إلى أمهات كتب التاريخ فلسوف يجدون كثيرا مما قيل في شعر الفتوح الإسلامية، وفي غزوات المصطفى وفي غزوات خلفائه، وفي معارك الحروب الصليبية وفي الحرب المعاصرة بين المسلمين وأعداء الإسلام، وسوف يجدون في هذا اللون من الشعر – أعني شعر الجهاد – سوف يجدون، ما يبرز قيم الإسلام، ويذكي في أرواح الشبيبة المؤمنة معاني البطولة والفداء للإسلام ومجد الإسلام وللمسلمين جميعا في كل أرض، ولقد تخيرت بعض النماذج من شعر الجهاد في العصر الحديث ناهيك بما تزخر به كتب الأدب من نصوص ذات مدد فياض من هذا الشعر، ولنستمتع الآن إلى قول شاعر الدعوة الإسلامية المعاصرة ((أحمد محرم)) من قصيدته ((إيطاليا في طرابلس)):

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كيف القرار ونار الحرب تستعر ويح العيون أغشاها النعاس وقد يبيت يخفق من خوف ومن حذر ريح الحطيم فأمسى وهو منتفيض ويح الحجيج إذا حانت منسكهم أيطرب البيت أم تبكي جوانبه ابن ابن عم رسول الله يطفئها أين ((اللواء)) وخليل الله يبعثها.. أين المعامع ترفض النفوس بها.. أين النفوس ترامى غير هائبة إليك – ربي – ولا من عليك بها أين التواريخ تستقصى عجائبها حرب بلا سبب ماجت فيالقها يا موقد الحرب (بغيا) في (طرابلس) أذاك والعصر عصر النور عندكم أين الألى زعموا الإنصاف شرعتهم يا أكثر الناس إنصافا ومعدلة نعم الشريعة ما سنت حضارتكم لسنا وإن عزبت أحلامنا وخوت متى أرى الجيش والأسطول قد شفيا داء الحضارة في أسمى مراتبها |  | والهول مضطرم البركان منفجر؟ شف الهلال عليها الحزن والسهر؟ حران يرقب ما يأتي به القدر وأقفلت يثرب الأحزان والذكر ماذا يرى طائف منهم ومعتمر حزنا ويعول فيه الركن والحجر؟ حربا على كبدي من نارها شرر عمرو ويصرخ في آثارها عمر؟ هلكى ويستن فيها النصر والظفر أين العزائم تمضي ما بها خور؟ فمالنا دون ما تبغى بنا وطر وأين ما وعت الآثار والسير؟ فالبر يرجف والدماء تستعر بأي عذر إلى التاريخ تعتذر؟ فما يكون إذا ما اسودت العصر؟ وقام قائمهم بالعدل يفتخر؟ العدل يصعق والأنصال يحتضر الحق يخذل والعدوان ينتصر منا الرؤوس بقول الزور ننبهر داء الذين زجرناهم فما ازدجروا فما على الكلب أن يعتاده السعر([[122]](#footnote-122)) |

إن هذه النغمات الإسلامية للشاعر أحمد محرم تغري بنا إلى المضي مع الجهاد الإسلامي المظفر عبر التاريخ الحافل الطويل؟

فماذا عن دور الأدب شعرا ونثرا في حياة حقب زمنية في كتب التاريخ والسير الإسلامية بعصر الحروب الصليبية؟ لقد لمَّ شتات هذا الموضوع كثير من الأدباء والنقاد والمؤرخين على اختلاف وتباين في مادة العطاء والعرض والتحليل، فمن كاتب عني بحصر النصوص وجمعها ومن كاتب استفرغ جهده في النظر إلى مادة هذا الأدب محللا ومعللا ومن مؤرخ اهتم بالتراجم الذاتية للقادة والحكام والولاة والعلماء والأدباء ومن مؤرخ جعل همه في التأريخ للوقائع والحوادث الإسلامية التي خاضها جنود الإسلام مع الجيوش الصليبية في عدد من الغزوات والوقائع.

وفى الآونة الأخيرة ظهر على صعيد الحياة الفكرية والأدبية المعاصرة عدد من الدراسات التي تناولت الأدب ودوره في تلك الحروب من ذلك ما سطره يراع الأديب الإسلامي الدكتور/ عمر عبدالرحمن الساريسى في كتابه ((نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية)) وقد تخيرت عددا من نصوص الشعر التي صورت آثار الحروب الصليبية وآثار الجهاد الإسلامي، مما كان سببا في إذكاء الروح الحماسية عند المسلمين، وسببا من أسباب نصرهم في عدد من الغزوات، ويقول الكاتب الدكتور عمر الساريسى:

غير خاف عن أحد أن أدب الدعوة إلى الله تعالى على عدم تحققه في أذهان كثير من الدارسين، متميز على غيره من ألوان الفكر المختلفة المنازع والاتجاهات التي تتوزع أدبنا العربي.

ففي كل عصر من عصور الأدب نجد أمثلة بينة الوضوح، فإننا نجد الأدب الجاد الذي يستشعر مسؤوليته التاريخية في حمل هموم الأمة وتراثها، ونجد الأدب الذي لا يهمه إلا أن يلبي نداءات فردية حرة من كل قيد.

ودور الأدب في الحروب الصليبية دور له عطاؤه الجم الثابت ثبوت المجاهدين في معارك تلك الحروب.

ولا يسعر الحروب ويشب أوارها مثل الشعر، من ذلك في استنهاض الهمم، ويقول القاضي الهروي، وقيل الأبيوردي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مزجنا دماءاً بالدموع السواجم وشر سلاح المرء دع يفيضه |  | فلم يبق منا عرضة للمراجم إذا الحرب شبت نارها بالصوارم |

إن الشاعر في هذا المطلع، يصرخ ببكاء الناس بكاء أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره.

وأنهم بكوا حتى لم يبق مجال للذم ولكن الشاعر هنا لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته لن يغنى في معركة يسعر نارها ضرب مسدد وسيف قاطع.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فأيها بني الإسلام إن وراءكم أتهويمة في ظل أمن وغبطة وكيف تنام العين ملء جفونها وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم تسومهم الروم الهوان وأنتم |  | وقائع يلحقن الذرا بالمناسم وعيش كنوار الخميلة ناعم؟ على هفوات أيقظت كل نائم؟ ظهور المذاكى أو بطون القشاعم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم |

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن الجهاد مع إخوانهم المسلمين فيبدأه المقطوعة بتوجيه نداء حار: أيها الإسلام أن أصحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو سيجعل أعزتكم أذلة، فكيف تنامون ملء عيونكم، وتعيشون عيشا ناعما مرفها، وفي أخوانكم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوسهم فلا يجدون للراحة معبرا ولا للنوم سبيلا فهم أبدا على صهوات خيول هم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا يجدون من يواري جثثهم أما أنتم ففي ثياب النعمة ترفلون.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى بحيث السيوف البيض محمرة الظبا وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة وتلك حروب من يغب عن غمارها سللن بأيدي الشركين قواضبا يكاد أن المستجن بطيبه... |  | توارى حياء حسنها بالمعاصم وسمر العوالى داميات اللهاذم تظل لا الولدان شيب القوادم ليسلم يقرع بعدها سن نادم ستغمد منهم في الطلا والجماجم ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم |

قال الدكتور الساريسي:

في هذه الأبيات يصور الشاعر المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أبيحت فيها دماء كثير من المسلمين، ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن، ولم يجدن ما يدفعن به عن إعراضهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياء وخوفا.

وقد اشتدت هذه الحروب، واستحر فيها القتل حتى بدت أسنة السيوف حمراء لاهية، وحتى أن الصبيان ربما ظهر في شعرهم الشيب لما في هذه الحروب من هول الطعن والجلاد.

وفي أبيات يصور الشاعر تخاذل بعض المحاربين قائلا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ويجتنبوا النار خوفا من الردى أترضى صناديد الأعاريب بالأذى فليتهم إذا لم يذودا حمية وإن زهدوا في الأجراء ذحمى الوغى |  | وما حهم والدين واهي الدعائم ولا يحبون العار ضربة لازم ويغضى على ذل كماة الأعاجم عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم فهلا أتون رغبة في الغنائم |

قال الدكتور السارسي:

يرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألما يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إسفافه، وطمس معالمه.

وفي نهاية القصيدة يبلغ الألم بالشاعر مبلغاً أشد فعلا وتأثيرا فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم، وما سينتج عنه من إذلال وصغار لأجيالهم القادمة إن لم يتداركوا أمرهم بفعل الحسام.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لئن أذعنت تلك الخياشيم للردى دعوناكم والحرب تدعو ملحة تراقب فينا نخوة عربية فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه |  | فلا عطست إلا بأجدع راغم إلينا بألحاظ النسور القشاعم تطيل عليها الروم عض الأباهم رمينا إلى أعدائنا بالحرائم |

قال الساريسي: يتسرب غضب الموقف في عروق الشعراء فيأتون بأجزل العبارات مضمخة بلغة العواطف المنفعلة الصادقة التي وقودها الصدق في القول([[123]](#footnote-123)).

ويستمر عطاء الشعر الإسلامي عبر تاريخ الإسلام فيطالعنا شعر الملاحم فماذا عن ذلك الفن الشعري المطول؟ ما نصيب الأدب أو الشعر الإسلامي منه؟ وهل شعر الملاحم مقصور على العرب الجاهليين وعلى من قبلهم ومن بعدهم من الأمم الأخرى؟ الإجابة على هذا السؤال ما قاله أحد النقاد المعاصرين من أن مظاهر الشعر باتفاق النقاد منحصرة في ثلاثة فنون رئيسية: هي الشعر الغنائي، والشعر التمثيلي، والشعر الملحمي، ذلك اللون الذي منه شعر.

قصص بطولي متشعب طويل السرد فيه العظمة والخوارق والأهداف الكبيرة والآمال العريضة، والنزعة الإنسانية والاتجاه القومي، والمجال الرحب هدفه الجماعات لا الأفراد، وتمجيد الأمة لا نقد المجتمع وبهذه الأوصاف يشذ عن اللونين: الغنائي والمسرحي وتعني الملحمة في اللغة: المعركة العظيمة، والملحمة على حد قول ابن خلدون تعني تاريخ الدول، أما في اليونانية فتعني الملحمة القصة أو الشعر القصصي الذي يختص بوصف القتال. ولما كانت الملحمة قصة طويلة ذات حادثة واحدة أو عدد من الحوادث ارتبطت وقائعها بحياة جماعة توحدت منها الآمال، وتشابكت المصالح كان لا بد من وحدة موضوعية يقوم عليها الفن القصصي، وتأنق الأحداث معها إلى الحل المنطقي وتتباين مراحل العمل الواحد في تعدد الأناشيد لبلوغ الهدف الإنساني المطلوب. وإذا اختلفت الملحمة عن القصة العادية من حيث أغراضها وأسلوبها فهي لا تقف عن السرد وخلق المتعة الأدبية بل تتخذ من التمثيل، وما يواكبها من وصف وتشبيه ومن الحوار المسرحي الخطابي سبيلا إلى السيطرة على العقول... وللملحمة موضوع بطولي شعبي. هو صراع بين حضارتين، صراع من أجل البناء البشري والوجود الإنساني، ولذا نجد شعر الملاحم يحوم حول كرامة أمة، وحماية تراث، وإثبات حق وتدعيم مصير وحفظ كيان، وصيانة عقيدة ((وتلك السمات لا تصدق إلا على الشعر الملحمي الإسلامي)) أما ما كان من الملاحم عن التاريخ الإنساني المجرد بما فيه من قيم صالحة وطالحة فهو شعر ملحمي يقوم على خلق الصراع الذي يمتزج فيه الواقع بالأسطورة وتعدد العقائد الممتزجة بالخرافات، ونجد هذا اللون أكثر بروزا وأعم ظهورا عند الأمم الوثنية لتحررها وإيغالها في مجال الأساطير الذي يمليه عليها تعدد ألهتها وتباين عقائدها ولنترك الحديث عن مجال البحث في ملاحم هذه الأمة لنتبين هل يوجد في الشعر العربي عند الجاهليين شعر من هذا اللون؟ إن العرب في جاهليتهم عرفوا الشعر الملحمي ولكنهم لم يعرفوا الملحمة كبناء فني على الرغم من وجود الموضوعات ووفرة العبقريات، ووجود الأدب اليوناني بينهم ومعرفتهم له، وخير دليل على معرفتهم له ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين من تحليل وتعليل الفوارق بين شعر الإغريق وشعر العرب وعلى الرغم من وقوفهم على شهنامة الفرس وعلى شيء من أدب الهند فإنهم لم يستسيغوا هذا النوع من الأدب أو من الشعر وهم يقلدوه بل ظلوا في معزل عنه وهذا ما حدا بابن الأسير أحد النقاد القدماء إلى الحكم بالتقصير في النفس الشعري عند العرب على الرغم من أنهم أبناء بطولة وفروسية وفيض شعري، ونكتفي بالحديث عن العلل والأسباب التي من أجلها تأخر الشعر العربي عند الجاهليين عن طول الشعر الملحمي غير مغفلين ما له من قصائد طوال عرفت بالمسمطات والمطولات والمعلقات والحوليات والمجمهرات لكنها على أي حال لا تصل إلى حد الملاحم المعروفة عند غيرها من الأمم وحين جاء الإسلام ذالك الحدث التاريخي الهام الذي هو وحي السماء إلى الأرض حين جاء ظهر على صعيده أمة ليس لها مثيل في تاريخ الأمم لأنها الأمة الوسط في كل شيء وكان لزاما أن يغير الإنسان في مسار فكرها وأدبها فيخرجه من طلاسم الوثنية والجاهلية إلى صحة المبدأ وسلامة المصير إخراجه لها من ظلام الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان فحل مكان البطولات والمعلقات والمسمطات والمجمهرات والحوليات قصائد إسلامية عصماء في الذب عن العقيدة والمنافحة عن عرض رسول الله ، وحسبنا في ذلك بقصائد كعب بن مالك وكعب بن زهير وشعر حسان بن ثابت ذلك الشاعر الذي قصر شعره على الإسلام ورسول الإسلام، ومن شعره قصيدته التي يعدها دارسو الأدب من قبيل الشعر الملحمي الذي صنفه النقاد في عداد المذهبات والقصيدة من شعره في الجاهلية غير أنها تحمل كثير من أبياتها قيم أخلاقية طبعها بطابع الإسلام من هذه القصيدة المطولة قول حسان رضي الله عنه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لساني وسيفي صارمان كلاهما فلا الدهر ينسيني الحبا وحفيظتي وأكثر أهلي من عيال سواهم |  | ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي ولا وقعات الدهر يفللن مبردي وأطوى على الماء القراح المبرد |
| \* \* \* \* | | |
| وإني لمزج للمطى على الوجى وإني لقوال لدى البيت مرحبا وإني ليدعوني الندى فأجيبه |  | وإني لتارك لما لم أعود وأهلا إذا ما ريع من كل مرصد وأضرب بيض العارض المتوقد |

ويفاخر حسان رضي الله عنه بشجاعة قومه وبطولتهم فيخاطب الشاعر قيسا بن الخطيم قائلا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فلا تعجلن يا قيس وارجع فإنما حسام وأرماح بأيدي أعزة أسود لدى الأشبال تحمي عرينها |  | قصاراك أن تلقى بكل مهند متى تلقهم بابن الخطيم تبلد مداعيس بالخطى في كل مشهد |

إلى قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فغن لدى الأبيات حورا قواعبا |  | وحجر مآقيك الحسان بأثمد |

ومن المطولات ذات المعاني الإسلامية قصيدة النابغة الجعدي تلك التي صنفها دارسو الأدب في عداد الملاحم المسماة ((بالمشوبات)) ومنها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خليلى عوجا ساعة وتهجرا ولا تجزعا إن الحياة قصيرة وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه ألم تريا أن الملامة نفعها.. تهيج لذي البخل الندامة بعد أن أتيت رسول الله إذ قام بالهدى خليلي قد لاقيت ما لم تلاقيا وما زلت أسعى بين باب ودارة |  | ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا فخفا لروعات الحوادث أوقرا فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا تغير شيء بعد ما كان قدرا ويتلو كتابا كالمجرة نيرا وسيرت في الأحياء ما لم تسيرا بنجران حتى خفت أن تنصرا |

إلى أن يقول النابغة مفتخرا بقومه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ومهما يقل فينا العداة فإنهم فما وجدت من فرقة عربية وأسرع منا أن أردنا انصرافه وأجدر أن لا يتركوا عانيا لهم وننكر يوم الروع ألوان خيلنا ونحن أناس لا نعود خيلنا وما كان معروفا لنا أن نردها بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا |  | يقولون معروفا وأخر منكرا كميلا دنا منا أعز وانصرا وأكثر منا دارعين وحسرا فيغبر حولا في الحديد مكفرا من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا صحاحا ولا مستنكرا أن تعقرا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا |

ويروى هذا البيت:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا |  | وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا |

وأثبتت مصادر الأدب أن النابغة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده هذه القصيدة إلى أن وصل إلى قوله: وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إلى أين يا أبا ليلى فقال النابغة: إلى الجنة يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم نعم إن شاء الله لا يفضض الله فاك. فكان النابغة من أحسن الناس ثغرا، وكان إذا سقطت له سن نبتت أخرى، ومن المعاني السامية في قصيدة النابغة هذه قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ولا خير في حلم إذا لم يكن له ولا خير في جهل إذا لم يكن له |  | بوادر تحمي صفوه أن يكدرا حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا |

ولم يزل نغم الشعر الإسلامي الملحمي ينساب في آفاق رحبة، وتدوي أصداؤه منذ فجر الدعوة المحمدية إلى اليوم وقد سمعنا ووقفنا على شيء من شعر الملاحم الإسلامية عند شعراء الإسلام من الرعيل الأول أولئك الذين جاهدوا في الله بأرواحهم وأموالهم ومواهبهم الأدبية فكانوا خير مثال يحتذى في الدعوة والتضحية والفدى للذب عن عقيدة الإسلام ورسول الإسلام وقيم الإسلام وأخلاقياته، وأحكامه العادلة ومثله الرشيدة. ولم ينضب هذا النبع الفياض ولم يتوقف هذا المسار الإسلامي من خلال العطاء الأدبي الثر عند شعراء الإسلام من المعاصرين فهذه ملحمة النصر للشاعر والمفكر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري، وهذه ملحمة أمجاد الرياض للشاعر محمد العيد الخطراوي تلك الملحمة التي سجل فيها الشاعر بطولات مؤسس الجزيرة العربية الملك عبدالعزيز رحمه الله، وهذه ملحمة أحسن القصص للشاعر خالد الفرج وملحمة نور الإسلام لمحمد الدبل وغير ذلك كثير مما ذخرت به المكتبة الأدبية الإسلامية المعاصرة فلنقف على شيء من مقطوعات متخيرة من هذه الملاحم الإسلامية التي لم يذل شعرائها يحاذرون ويجاهدون بأقلامهم جنود الباطل موضحين للمجتمع الإسلامي فضائل الإسلام وعدالته وصلاحه لكل زمان ومكان.

يقول الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في ملحمته من قصيدة بعنوان (الهجرة درس الدهر):

|  |
| --- |
| يا رسول الله والهجرة خلد من مآثر هي درس الدهر في الإيمان والعزم المثابر هي مجد الحكمة القعساء في قهر العواثر هي مكر الله بالبغي وما كان الله ماكر يا رسول الله نحن اليوم في شدق المخاطر فعلى دربك نمضي فلتنر منا البصائر سائلين الله عونا حينما نمضي نهاجر هجرة لله يا أمة خير المرسلين النبي العربي الصادق الثبت الأمين الأبي المثل العلوي في دنيا ودين سيد الخلق لسان الحق عدل الشاهدين من بنى الإنسان بالإيمان بالعزم المكين أمة الإسلام ما في الأرض من مستخلفين([[124]](#footnote-124)) غيرنا وأضلنا حتام نبقى نائمين |

وهذه مقطوعة أخرى من قصيدة (الجنة تحت ظلال السيوف) يقول الأميري:

|  |
| --- |
| أمة الإسلام هذي سنة لا كالسنين نحن في مفترق بين دروب الحائرين قد نراهم في شماس وحماس خائضين مكر جبارين والليث سجين في العرين وطريق النصر ليست ظللا من ياسمين جنة الرضوان في ظل سيوف الفاتحين جاهدي والتمسي في السعي نهج الفائزين وثقي بالله، وعد الله حتم لا يمين نصره آت إن طالت طريق الكادحين يا إله الكون قلد أمره للمسلمين كن لنا نبعث عهود الخلفاء الراشدين وأقمنا وأدمنا رحمة للعالمين([[125]](#footnote-125)) |

ونجتزئ من ملحمة (أمجاد الرياض) تلك المقطوعات التالية تحت عنوان (خلق الصحراء) يقول الشاعر الخطراوي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أي سحر على ثغور الأقاحي وغصون العرار داعبها الطل تلثم الشيخ والخزامي وتلقى والزهور الحسان في الرمل تزهو إن للبيد فتنة لا تجاري وحنانا يفيض طهرا وحلما وسماحا ونجدة واقتدارا |  | صنعته الصحراء عبر البطاح فمالت على ذراع الصباح خصر قيصومة بغير وشاح كالآلى على صدور الملاح وجمالا يعم كل النواحي وصفاء ينبض بلا ارتياح وإباء وحنكة في الكفاح |

ومن قصائد ملحمة الخطراوي تلك القصيدة العصماء في رثاء جلالة الملك فيصل رحمه الله وعنوان القصيدة (الدموع الخرساء)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ما لهذه الوجوه لفعها تتراءى الآلام فيها سطورا لونتها الأشجان حتى تبدت فيصل مات فاندبي يا بلادي فاندبي دوحة العروبة شهما من لأرض الجولان في جوها من لصوت الإسلام يشكو بنوه من لغوث الأيتام في قبضة من لدين القرآن يحمي حماه آه سهم الهموم رفقا بقلبي |  | الحزن فباتت مشدوهة السماء داميات من الأسى والبكاء مثل لون الأترنجة الصفراء واغسلي بالدموع جرح الإباء بذل الروح في دروب الغلاء الدامي وصد الأعداء في سيناء؟ سطوة الكفار في ليالي الشقاء؟ الفقر تزج الأدواء بالأدواء؟ في جميع الأرجاء والأنحاء؟ ليس لي سلوة ولا من عزاء |

وعن كفاح الملك عبدالعزيز وبطولاته تقول ملحمة أمجاد الرياض:

|  |  |  |  |
| --- | --- | --- | --- |
| شعلة الحق في ضمير الرجال وتمر الأيام وهي ضرام | |  | تتأبى على القنا والزوال يشعل النور في دروب المعالي |
| وعلى نورك الوضيء قديما وحديثا يقوم كل نضال هكذا الحق في فؤادك يعطى مثل المكرمات للأجيال ونزلت الشقيب ترسم فيه خطة النصر صحبة الأبطال | | | |
| ومنحت الرياض نظرة صب فرأيت الأسوار تشمخ سكري والنخيل الكثيف حول حماها والأصيل الجميل يسكب ذوبا والأماني حوما كعذارى ينتظرن العريس يقبل يوما يمتطى صهوة الجواد عليه |  | | عاشق غاب في وثير الخيال بحيما الأهوال والآجال عارقا في سكينة وجلال من ضياء مضمخ بالظلال يتهادين في الذرا والتلال من خلال الصحراء فوق الرمال حلبة الفضل والحجا والكمال([[126]](#footnote-126)) |

إلى أخر ما سطره يراع الشاعر الخطراوي في ملحمته (أمجاد الرياض).

وهذه مقاطع من ملحمة (نور الإسلام) يستهل الشاعر هذه الملحمة بأبيات عن عظيم قدرة الله في هذا الكون الرحب وما يجري فيه من خلق كثير وأناس فيقول:

|  |
| --- |
| من نسق الكون؟ من جلي بدائعه وأرسل الشمس تبرا حين تقراه من أترع البحر من أجرى مواخره وأرسل الحوت حيا حين أجراه وعلم الآدميين المضي إلى عيش الحياه |
| بسراه وضراه |
| وأنطلق الطفل بابا في محاولة وقبل ذلك من في الغيب سراه واخلف الليل في أعقاب حكمته بساطع من نهار حين جلاه أذلك الكون في أعقاب صدفته؟ بل ذلك الله بالنعما تولاه فمن يكون إله العالمين سوى رب الوجود وحقا ذلك الله |

وينطلق الشاعر في هذه الملحمة الإسلامية ليرسم صورا وارفة الظلال عن مجد الإسلام وأركان الإسلام وتعاليمه وأحكامه ورسوله ومعجزته وعن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزاتهم وعن المجتمع الإسلامي في ظل الشريعة الإسلامية فمع هذه المقطوعة من الملحمة بعنوان نظام الكون:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تطلع الشمس كل صبح جديد تمنح الكون ما أقامت حياة فيعم الوجود ليل رهيب ثم يتلوه ضوء فجر جديد جاعل الليل للأناسي سكونا يشهد الكون كل يوم حياة والنظام البديع ما غيرته هل تخطى الربيع شهر جمادى أو تبدى نهارنا سرمديا كل شيء بحكمة ونظام |  | تتهادى في سيرها بانشراح ثم تدنو في افقها للرواح.. ساكن الخطو زعزعي الرياح مد عطفيه فالق الإصباح والنهار المضئ عيش امتياح من دؤوب وكادح سواح فلسفات الأحداث عبر النواحي أو آتى الصوم شهر عيد الأضاحي؟ أو جثى الليل ما له من براح؟ يتوالى في غدوة ورواح؟([[127]](#footnote-127)) |

وهذا غيض من فيض مما سكبته أقلام الشعراء الإسلاميين عن شعر الملاحم قديما وحديثا.

ولئن بلغ شعر الملاحم قديما وحديثا مبلغ الجودة فهناك قصائد إسلامية ذات نفس طويل ولا تقل جوده وإبداع عن القصائد الملحمية. ونتخير من هذا اللون قصيدة الشاعر (البوصيري) مع قصائد أخرى لشعراء آخرين.

تشتمل قصيدة البوصيري على ما يقرب من ستين ومائة بيت على حسب ما حرره محقق الديوان محمد سيد كيلاني.

ومطلع هذه القصيدة غزل عذري عفيف نحا فيه البوصيري منحى الشعر الإسلامي حيث الوصف المجرد البعيد عن تسقط العورات وأوصاف المحاسن، والعهر والفحش، غزل يتسم بالإبداع والصور الفنية المعبرة عن تباريح الشوق والهيام من غير إثارة لما لا يحسن من تهالك وصبابة تؤدي إلى ما لا يليق بالشاعر المسلم في هذا الغرض من أغراض الشعر، ويبدأ مطلع القصيدة بقوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أمن تذكر الجيران بذي سلم أم هبت الريح من تلقاء كاظمة فما لعينك إن قلت اكففا همتا أيحسب الصب أن الحب منكتم لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل فكيف ينكسر حبا بعد ما شهدت وأنبت الوجد خطى عبرة وضنى نعم سرى طيف من أهوى فأرقني يا لائمي في الهوى العذري معذرة |  | مزجت دمعا جرى من مقلة بدم؟ وأومض البرق في الظلماء من أضم؟ وما لقلبك إن قلت استفق يهم؟ ما بين منسجم منه ومضطرم ولا أرقت لذكر البان العلم به عليك عدول الدمع والسقم مثل البهار على خديك والعنم والحب يعترض اللذات بالألم مني إليك ولو أنصفت لم تلم |

وبعد هذا المطلع الرقيق الشفاف يخلص البوصيري إلى النصح وعظا مذكرا بسوءات النفس الإنسانية ما لم يكبح جماحها صاحبها، وأنه إن أطاعها في تلبية ما تشتهي أوردته المهالك وأنه أن جاهدها بالتقوى والحذر سلم وسلم منه غيره.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إني اتهمت نصيح الشيب في عذل فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من لي برد جماح من غوايتها فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها والنفس كالطفل إن تهمله شب على فاصرف هواها وحاذر أن توليه كم حسنت لذة للمرء قاتلة وخالف النفس والشيطان واعصهما |  | والشيب أبعد في نصح من التهم من جهلها بنذير الشيب والهرم كما يرد جماح الخيل باللجم إن الطعام يقوى شهوه النهم حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم إن الهوى ما تولى يصم أو يصم من حيث لم يدرى أن السم في الدسم وإن هما محضاك النصح فاتهم |

وبعد هذه المعاني الإسلامية السامية ذات المثل العليا والقيم الرفيعة ينتهي البوصيري إلى مدح رسول الهدى قائلا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| محمد سيد الكونين والثقليـ نبينا الآمر الناهي فلا أحد هو الحبيب الذي ترجى شفاعته دعا إلى الله فالمستمسكون به فاق النبيين في خلق وفي خلق وكلهم من رسول الله ملتمس فهو الذي تم معناه وصورته دع ما ادعته النصارى في نبيهم وانسب إلى ذاته ما شت من شرف فإن فضل رسول الله ليس له لم يمتحنا بما تعيا العقول به كالشمس تظهر للعينين من بعد |  | ن والفريقين من عرب ومن عجم أبر في قول (لا) منه ولا نعم لكل هول من الأهوال مقتحم مستمسكون بحبل غير منفصم ولم يدانوه في علم ولا كرم غرفا من البحر أو رشفا من الديم ثم اصطفاه – حبيبا – بارئ النسم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم وانسب إلى قدره ما شئت من عظم حد فيعرب عنه ناطق بفم حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم صغيرة وتكل الطرف من أمم |

هذه الأوصاف الحسية والمعنوية مما يخلعه البوصيري على شخص رسول الإسلام أوصاف ما تميز بها أحد من البشر سواه، ولم يضفها البوصيري إلى شخص محمد ، ولم يأت بجديد إزاء هذه الأوصاف وذكرها وسردها فإنه معلوم من سيرة محمد النبي الرسول أنه صاحب هذه الخصال الحميدة التي شهد بها القرآن الكريم وشهد بها أعداء رسول الله وأحباؤه على حد سواء وهذا ما صدق نبوته وصحة رسالته وإنه مزود بالمعارف والفضائل والخصال الحميدة من الإله الواحد الذي اصطفاه من بين الأميين رسولا.

ويستطرد البوصيري في تعداد خصال النبي الكريم من غير إطراء ولا كذب وأنى له أن يكذب على رسول الله فيقول عنه ما ليس فيه، ومن هنا ينبغي تنبيه القارئ على شيئين هامين: أحداهما يتعلق بحياة البوصيري العقدية وثانيهما يتعلق بشعره وبخاصة قصيدته (البردة).

أما الشيء الأول: ما اكتنف حياة البوصيري من أخذه وملازمته وتأثره بمنهج الصوفية، ذلك المذهب الملزم الذي نحا بكثير من العلماء والزهاد والعباد إلى إتباع ما لم يؤمروا به مبالغته في الجانب التعبدي من العقيدة.

وأما الشيء الثاني: فهو أن هذا التصوف انعكس على شعر البوصيري فورد في عدد من قصائده وبخاصة قصيدته (البردة) أبيات متناثرة هنا وهناك كلها مبالغة وإيغال وعلو، لا يليق بمقام رسول الله ولا يليق بمسلم يتأسى برسول الله خلقا وإتباعا، لا يليق بشاعر مسلم يقول ليصحح ويعرب ويمحو ما هو فاسد مشين.

تقول أبيات البردة في إكمال سيرها البياني الرائع الجميل: مما لا مبالغة فيه ولا إيغال:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فمبلغ العلم فيه أنه بشر فإنه شمس فضل هما كواكبها أكرم بخلق نبي زانه خلق كالزهر في طرف والبدر في شرف كأنه وهو فرد – في جلالته أبان مولده عن طيب عنصره |  | وأنه خير خلق الله كلهم يظهرن أنوارها للناس في الظلم بالحسن منتظم بالبشر متسم والبحر في كرم والدهر في همم في عسكر حين تلقاه وفي حشم يا طيب مبتداء منه ومختتم |

ومن هذه الرائعة الإسلامية قول البوصيري

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| دعني ووصفي آيات له ظهرت فالدر يذداد حسنا وهو منتظم آيات حق من الرحمن معجزة محكمات فما تبقين من شبه لها معاني كموج البحر في مدد |  | ظهور نار القرى ليلا على علم وليس ينقص قدرا غير منتظم قديمة صفة الموصوف بالقدم لذي شقاق وما تبغين من حكم وفوق جوهرة في الحسن والقيم([[128]](#footnote-128)) |

وللبوصيري قصيدة همزيه في مدح رسول الله منها:

|  |
| --- |
| لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الأسماء لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء وتولت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء وتداعى إيوان كسرى ولولا قدرة الله ما تداعى البناء مولد كان منه في طالع الكفر وبال عليهم ووباء...... وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضوئها الأرجاء وتراءت قصور قيصر بالروم يراها من داره البطحاء |

وبعد أن يتوغل الشاعر البوصيري في عرض حياة نبي الله محمد فيرسم للأدب والأدباء معاني حية شريفة سامية مما خلده التاريخ لنبي الله وشهد به صديقه وعدوه يلتفت التفاتة الواثق المطمئن الصادق فيما يقول في طائفة من الأبيات ضمن هذه المذهبة الرائعة يحدثنا عن صفات نبي الله محمد خلقه وخلقا فيقول..

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| واملأ السمع من محاسن يمليـ كل وصف له ابتدأت به استو سيد ضحكه التبسم والمشـ ما سوى خلقه النسيم ولا غير رحمة كله وحزن وعزم لا تحل البأساء منه عرا كرمت نفسه فما يخطر عظمت نعمة الإله عليه جهلت قومه عليه فأغضى وسمع العالمين علما وحلما شمس فضل تحقق الظن فيه معجز القول والفعال كريم لا تقس بالنبي في الفضل خلقا |  | ها عليك الإنشاد والإنشاء عب أخبار الفضل منه ابتداء ـى الهوينا ونومه الإغفاء محياه الروضة الغناء ووقار وعصمة وحياء الصبر ولا تستخفه السراء والسوء على قلبه ولا الفحشاء فاستقلت لذكره العظماء وأخو الحلم دأبه الإغضاء فهو بحر لم تعيه الأعباء انه الشمس رفعة والضياء الخلق والخلق مقسط معطاء فهو البحر والأنام أضاء([[129]](#footnote-129)) |

وننتقل مع الشاعر البوصيري في قصائده الإسلامية لنطل على شيء من أبياته الرائعة في قصيدته الرائعة المادحة التي يعزى فيها أحد ولاة المسلمين في عهده قصيدة رائعة تصل أبياتها إلى خمسين ومائه بيت – فهي ملحمة إسلامية حوت كثيرا من المعاني الإسلامية الدفاقة، فلم يقتصر الشاعر البوصيري فيها على تعداد خصال الفضائل لممدوحه، بل جمع فيها وأوعى من فضائل الإسلام وخصائصه ومثله وأحكامه من هذه القصيدة قول البوصيري.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أخجلت بالحلم سادات الزمان فلم ولم تزل تستر العيب الذي كشفوا لو إن ألسنه الأيام ناطقه |  | يعفوا كعفوك عن ذنب – إذا قدروا ولم تزل تجبر العظم الذي كسروا أثنت على فضلك الآصال والبكر |

وبعد هذه الأبيات يلتفت البوصيري إلى ذلك الوالي في عاطفة صادقة مشبوبة لولا بعض المبالغات في المعاني.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بنانه من نداه الغيث منسكب نهته عن لذة الدنيا نزاهته خاف الإله فخافته رعيته فطهر الأرض من أهل الفساد فلا ودبر الملك تدبيرا يقصر عن وحين طارت إلى الأعداء سمعته وكل أرض ذكرناه بها غنيت كأن صارمه في كل معترك يا حسن ما يجمع الدنيا وينفقها لكل شرط جزاء من مكارمه فما نظمت مديحا فيه مبتكرا مشى صراطا سويا من ديانته مشمر في مراعى الله مجتهد زان الليالي والأيام إذا بقيت وقفت بين يديه من مهابته فاقبل – بفضلك مدحا قد آتاك به فما على القوس من عيب تعاب به |  | وسيفه من سطاء النار تستعر وشره النوم من أجفانه السهر والمرء يجزى بما يأتي وما يذر عين لهم بقيت فيها ولا أثر إدراك أيسره الإفهام والفكر مات الفرنج بداء الخوف والتتر عن أن يجرد فيها الصارم الذكر نذير موت خلت من قبله النذر كالبحر يحسن منه الورد والصدر وكل مبتدأ منها له خبر إلا أتاني جود منه مبتكر فما يزال بأمر الله يأتمر... وبالعفاف وتقوى الله مؤتزر كأنها غرر في أثرها طرر وقالت الناس: ميت مسه كبر شيخ ضعيف إلى تقصيره قصر إن انحنت واستقام السهم والوتر([[130]](#footnote-130)) |

ويعارض الشاعر شوقي قصيدة البردة بقصيدته (نهج البردة) وقد أجاد وأبدع شوقي في معارضته ومنها ذلك المطلع الذي استهله بغزل عذري عفيف يتصدر ملحمة شعرية تربو أبياتها على تسعين ومائه بين مطلع ينضج بنبل العواطف مع آسرات، العواطف مع الظباء الغيد يرتعن في رياض الشعر، ويسكن قلوب الشعراء فيقول..

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ريم على القاع بين ألبان والعلم رمى القضاء بعيني جؤذر أسلا لما رنا حدثتني النفس قائلة جحدتها وكتمت الجرح في كبدي رزقت أسمح ما في الناس من خلق يا لائمي في هواه والهوى قدر... لقد انلتك أذنا غير واعية يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا |  | أجل سفك دمى في الأشهر الحرم يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى جرح الأحبة عندي غير ذي ألم إذا رزقت التماس العذر في الشيم لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلد ورب منتصت والقلب في صمم أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم |

إلى أن يقول شوقي

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الحاملات لواء الحسن مختلفا وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربي |  | أشكاله وهو فرد غير منقسم يرتعن في كنس منه وفي أكم |

وبعد هذا المطلع المونق الناظر الخلاب يخلص شوقي – رحمه الله – ملقيا باللوم على نفسه لئلا تنزلق في متاهات الحسن متناسية ما يعقبه هذا الانزلاق وأن هذا الجنا والتجني ما هو إلا خيال وتهويمات شاعر يرى الحسن بالبصر والبصيرة في كل شيء فكيف به من خلقن للحسن حسنا.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بيني وبينك من سمر القنا حجب لم أغش مغناك إلا في غضون كرى يا نفس دنياك تخفى كل مبكية فضى بتقواك فاها كلما ضحكت لا تحفلي بجناها أو جنايتها كم نائم لا يراها وهي ساهرة طورا تمدك في نعمى وعافية صلاح أمرك للأخلاق مرجعه والنفس في خيرها في خير عافية تطغى إذا مكنت من لذة وهوى |  | ومثلها عفة عذرية العصم مغناك أبعد للمشتاق من ارم وان بدا لك منها حسن مبتسم كما يفض أذى الرقشاء بالثرم الموت بالزهر مثل الموت بالفحم لولا الأماني والأحلام لم ينم وتارة في قرار البؤس والوصم فقوم النفس بالأخلاق تستقم والنفس من شرها في مرتع وخم طغى الجياد إذا عضت على الشكم |

ثم يخلص شوقي رحمه الله إلى الغرض من القصيدة ذلك الغرض الذي هو من أسمى وأجل أغراض الشعر الإسلامي إنه مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أغنى شخص محمد عليه الصلاة والسلام وما أزكى نفسه عن الكثير والقليل من القول ولكنها عواطف المسلم الذي تنم عباراته عن محض الإيمان وخالص المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لزمت باب أمير المؤمنين ومن فكل فضل وإحسان وعارفة يزرى ويضيء زهيرا حين أمدحه محمد صفوه الباري ورحمته سناؤه وسناه الشمس طالعة لما رآه بحيرا قال نعرفه لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ وظللته فصارت تستظل به |  | يمسك بمفتاح باب الله يغتنم ما بين مستلم منه وملتزم ولا يقاس إلى جودي ندى وهرم وبغية الله من خلق ومن نسم فالجرم في فلك والضوء في علم بما حفظنا من الأسماء والسيم فاضت يداه من التسنيم بالسنم غمامة جذبتها خيرة الديم |

وبعد أن يعدد بعض خصال النبي الكريم يرسم الشاعر لوحة منقوشة بظلال التعابير الموحية ذات الألفاظ الفخمة الجزلة الواضحة مما يتناسق مع الجو الروحاني في غار حراء في أول لقاء ينعقد فيه لقاء السماء بالأرض في موكب إيماني يضم ثلاثة لا رابع لهم إنهم جبريل عليه السلام ومحمد صلوات الله وسلامه عليه وبينهما صوت القرآن يدوى في الوجود بلفظة (اقرأ)

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ونودي اقرأ تعال الله قائلها هناك أذن للرحمن فامتلأت فلا تسل عن قريش كيف حيرتها يا جاهلين على الهادي ودعوته لقيتموه أمين القوم في صغر فاق البدور وفاق الأنبياء فكم آياته كلما طال المدى جدد يكاد في لفظة منه مشرفة |  | لم تتصل قبل من قيلت له بفم أسماع مكة من قدسية النغم وكيف نفرتها في السهل والعلم هل تجهلون مكان الصادق العلم وما الأمين على قول بمتهم بالخلق والخلق من حسن ومن عظم يزينهن جلال العتق والقدم يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم([[131]](#footnote-131)) |

ولشوقي رحمه الله مدائح نبوية كثيرة منها رائعته (ولد الهدى) أو الهمزية النبوية ومنها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ولد الهدى فالكائنات ضياء الروح والملأ الملائك حوله والعرش يزهو والحضيرة تزدهي وحديقة الفرقان ضاحكة الربى والوحي يقطر سلسلا من سلسل نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة يا خير من جاء الوجود تحية بيت النبيين الذي لا يلتقي خير الأبوة حازهم لك آدم هم أدركوا عز النبوة وانتهت خلقت لبيتك وهو مخلوق لها بك بشر الله السماء فزينت وبدا محياك الذي قسماته وعليه من نور النبوة رونق يوم يتيه على الزمان صباحه الحق عالي الركن فيه مظفر والآي تترى والخوارق جمة نعم اليتيم بدت مخايل فضله |  | وفم الزمان تبسم وسناء للدين والدنيا به بشراء والمنتهى والسدر والعصماء بالترجمان شذيه غناء واللوح والقلم البديع رواء في اللوح واسم محمد طغراء من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا إلا الحنائف فيه والحنفاء دون الأنام وأحرزت حواء فيها إليك العزة القعساء إن العظائم كفؤها العظماء وتضوعت مسكا بك الغبراء حق وغرته هدى وحياء ومن الخليل ونهجه سيماء ومساؤه بمحمد وضاء في الملك لا يعلو عليه لواء جبريل رواح بها غداء واليتيم رزق بعضه وذكاء |

وبعد هذه اللآلئ المنظومة في خيطها الدقيق تعبيرا عن فرحة الوجود بنبي الهدى صلوات الله وسلامه عليه. يسترسل شوقي رحمه الله في نظم معتق الشذرات مستلهما من أدب القرآن الكريم أخلاق النبي الكريم تلك الأخلاق النبوية التي لا يضارعه فيها مخلوق فهي فوق إنها خلال حميدة يشترك فيها كل مسلم إلا أنها في جانب شخص الرسول صلى الله عليه وسلم.

سنة يتأسى بها المسلمون قولا وعملا فلم تعد من الأخلاق المكتسبة بمجرد التقليد والمحاكاة.

ولكنها أخلاق يقتدى بها وتتجلى بها ويعمل بها كل مسلم محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ويطبق سنته القولية والعملية والتقريرية

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا من له الأخلاق ما تهوى العلا لو لم تقم دينا لقامت وحدها زانتك في الخلق الكريم شمائل أما الجمال فأنت شمس سنائه والحسن من كرم الوجوه وخيره وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وإذا عفوت فقادرا ومقدرا وإذا رحمت فأنت أم أو أب وإذا غضبت فإنما هي غضبة وإذا رضيت فذاك في مرضاتها وإذا خطبت فللمنابر هزة وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما وإذا حميت الماء لم يورد ولو وإذا أجرت فأنت بيت الله لم وإذا ملكت النفس قمت ببرها وإذا بنيت فخير زوج عشرة وإذا صحبت رأى الوفاء مجسما وإذا أخذت العهد أو أعطيته وتمد حلمك للسفيه مداريا في كل نفس من سطاك مهابه يا أيها الأمي حسبك رتبة |  | منها وما يتعشق الكبراء دنيا تضيء بنوره الآناء يغرى بهن ويولع الكرماء ملاحة الصديق منك إياء ما أوتي القواد والزعماء وفعلت ما لا تفعل الأنواء لا يستهين بعفوك الجهلاء هذان في الدنيا هم الرحماء للحق لا ضغن ولا بغضاء ورضى الكثير تحلم ورياء تعرو الندى وللقلوب بكاء جاء الخصوم من السماء قضاء أن القياصر والملوك ظماء يدخل عليه المستجير عداء ولو أن ما ملكت هناك الشاء وإذا ابتنيت فدونك الآباء في بردك الأصحاب والخلفاء فجميع عهدك ذمة ووفاء حتى يضيق بعرضك السفهاء ولكل نفس في نداك رجاء في العلم إن دانت لك العلماء |

وكم هي كثيرة سخية تلك المعاني الإسلامية التي أنعم الله بها على رسوله الكريم. ويعجز بلغاء الكلام عن حصرها وتصويرها وشرحها وبسطها ولقد أربى الشاعر شوقي على كثير من الأدباء والمفكرين في همزيته هذه أربى على كثير ممن أحصى وعدد وبسط وشرح شمائل الرسول الكريم. على الرغم من طول نفس النثر واتساعه للتحليل والتعليل والتدليل وقد كفى الشاعر أحمد شوقي سموا أدبيا قوله في شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الشجاعة التي أخذت مكانها في مواقف اللين كما أخذت مكانتها في مواقف الحزم وصدق اللقاء والغضب في الله وله.

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| الحرب في حق لديك شريعة الخيل تأبى غير أحمد حاميا شيخ الفوارس يعلمون مكانه وإذا تصدى للضبى فمهند ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن إن الشجاعة في الرجال غلاظه والحرب يبعثها القوى تجبرا.. كانت لجند الله فيها شده.... |  | ومن السموم الناقعات دواء وبها إذا ذكر اسمه خيلاء وان هيجت آسادها الهيجاء أو للرماح فصعدة سمراء أمنت سنابك خيله الأشلاء ما لم تزنها رأفة وسخاء وينوء تحت بلائها الضعفاء في أثرها للعالمين رخاء |

ويختم الشاعر شوقي رائعته هذه بقول شامل جامع ينفى المآخذ ويقر الصواب في شريعة الإسلام على يد محمد صلوات الله وسلامه عليه ويتجلى حسن هذا الختام في قول شوقي..

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أنت الذي نظم البرية دينه المصلحون أصابع جمعت يدا... مشت الحضارة في سناها واهتدى |  | ماذا يقول وينظم الشعراء هي أنت بل أنت اليد البيضاء في الدين والدنيا بك السعداء([[132]](#footnote-132)) |

وإذا مدح الشعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما مدحوا بذكره شعرهم وخلدوه بالثناء عليه مآثر الإسلام والمسلمين فإن في شخص محمد صلى الله عليه وسلم وفي خلقه، وفي الهدى الذي جاء به في ذلك كله ما يفتح آفاقا رحبة يحلق فيها الشاعر فيبدع في معناه ومبناه، وما أكثر الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجاه، ومن جملتهم الشاعر البحريني أحمد محمد الخليفة فقد جاء شعره خفقة إسلامية من خلال عدد من القصائد الرائعة كقصيدته: إسراء محمد، وقصيدته ميلاد محمد، وقصيدته تحية العام الهجري، وقصيدته من وحي الهجرة وقصيدته خواطر في رمضان، وإليك مواكب المجد، وإرادة النصر، ولقاء الأشقاء: ومن بدائعه قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يجرى الوفاء حنينا في جوانحنا تلفتوا واحذروا الأنواء إن عصفت أرى رياح الدياجى تستزيد لظى فمن غفا عن عواديها بمقلته إلا فتى ساهراً يقضى الدجى خدرا إذا رأى شررا في جوف داجية ما أشبه اليوم بالأمس البعيد إذا الدين لله والإسلام عزتنا.... نسير صفا إلى العليا تجمعنا نبنى ونرفع للأحفاد رايتنا وشمسنا في السماء الحق ساطعة |  | والشوق يوضحه من غير تبيان فالدهر يوقظ دوما كل وسنان والدهر يذكى سوافيها بنيران ونام عن خطبها يمنى بخسران يراقب الله في سر وإعلان سرى وأخمد رياها بطوفان سرنا جميعا برايات وقرآن لولاه ما رفعت أركان أوطاني إرادة الله في تدبيرها الباني فوق الثريا بلا شرح وتبيان تعمى الظليل وعين الحاسد الشاني |

إن في شعر هذا الشاعر الإسلامي من المعاني الإسلامية والقيم الرفيعة ما يدل على نضج الشاعرية المتمثلة في صدق العواطف والأحاسيس وسلامة النزعة الإسلامية. ولكن تحوم آراء النقاد المعاصرين حول هذا الشاعر وحول شاعريته فينصفونه حين يكون شاعر الطبيعة ولا تجد لأحد من هؤلاء النقاد أي إشارة إلى شاعريته الإسلامية الفياضة انه لجدير بأن يصنف في عمالقة الشعر الإسلامي والفكر الإسلامي فهو في كثير من قصائده مجاهد بالكلمة الطيبة والفكرة الصائبة والمعنى السامي الشريف.. من ذلك قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أيها الشرق أنت رمز البطولات جدد الآن عهدك الغا أطلق النار في صدور الطواغيـ واسكب النخوة الكريمة في الآفا أنت يا شرق مهبط الروح في من ثراك الحبيب ينطلق الإيمان قوة أنت تلهم الأبد المجهول طهر الأرض إنها غرقت في الإثم وانشر الخير والسماحة والآمال |  | ومهد الرسالة الغراء بر الميمون في ظل قادة أوفياء ت وهدم ما شيدو من بناء ق من كل ذروة شماء الدنيا ومسرى الإلهام والإيحاء كالوحي سابحا في الخفاء سر النبوة العصماء واستهترت بعدل السماء من ضوء فجرك الوضاء |

وإليك هذه المقطوعة من قصيدته المجاهد المسلم...

|  |
| --- |
| رنا فتغنت الدنيا أمامه بألحان البطولة والشهامة فشب يسامر العلياء طفلا ويستوحي من المجد الصرامة فتى في الحب أمته تسامى فصان بلاده وحمى ذمامه فؤاد مستفيض العزم ثبت وروح بالمعارك مستهامة سرى للحرب في ليل الرزايا ومل العيش في ظل السلامة عصامي كبير النفس ندب على قرن الشموس بنى خيامه إذا ناداه للهيجاء مناد جرى كالليث ممتشقا حسامه يصون كيان أمته بسيف يريك بريقه يوم القيامة تنزى مشرئبا للأعادي فصوب في مقاتلهم سهامه إذا ما هب للهيجاء فجرا رأيت أبا عبيدة أو أسامة |

ويطول بنا المطاف مع الشاعر الإسلامي فحسبنا أن نسوق من قصائده الإسلامية وروائعه البديعة بعضا من قصيدته قافلة النون:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| هي ادري بدربها فدعوها قصدها طيبة – وطيب ثراها طيب طه الذي به الله أحيا كلنا في المدي قلوب هيامى ائتلق واغمر الدياجي ضياء يسترد الرايات فوق فلسطيـ واجعل الحق والسلام نشيدا إن نور الإسلام كم طهر الأرض فإذا الفاتحون في وهج الهيجاء يتفانون في الوغى فتراهم نهلوا من محمد فإذا هم حسبهم أنهم على الأرض حزب الله |  | تتباهى في السير بالارتحال فاح في البيد من وراء الجبال بالهدى الخلق بعد طول الضلال نتملاك في خوافي الأعالي واجعل الشرق ملعبا للنضال ن ويردى شراذم الاحتلال بعد عهد النواح والاقتتال ونقى بها قلوب الرجال لا يحلفون بالأهوال كـأساطير قصه في الخيال صفوه الملهمين والأبطال عاشوا لصالح الأعمال([[133]](#footnote-133)) |

هذه إلهامات شعراء الإسلام الذائدين عنه، وهذا هو عطاء الشعر الإسلام من عهد حسان في القدماء إلى شعراء الأمة الإسلامية في عصرها الحاضر.

**الخاتمـــــــــــة**

وبعد: فقد طال بنا السير في آفاق الأدب الإسلامي شعرا ونثرا وفي السطور المختزنة يمكن أن نقول كل شيء عن هذا اللون من الأدب فقد بقي في النفس آمال وآلام كان بودي أن أسطرها في ثنايا هذه الدراسة المتقدمة التي اجتزأت فيها بالقليل عن الكثير، حتى كادت أن تعنى بإيراد النصوص دون التعمق في آفاق هذا الأدب الغائي الهادف، فهناك أفكار كان ينبغي أن تشخصها هذه الدراسة.

من مثل:

الأدب الإسلامي لماذا؟ وكيف نكتب تاريخه.

الوجه الحضاري لهذا الأدب.

الأدب الإسلامي والصراعات الفكرية المعاصرة.

الأدب الإسلامي بين البلاغة والتبليغ.

وظيفة النقد في المجتمع الإسلامي.

الأدب الإسلامي وعلاقته بالحياة والناس.

الأدب الإسلامي وفن المتعة والتسلية.

الكون والحياة والإنسان في التصور الإسلامي.

كان من الجدير ذكره أن تعنى هذه الدراسة بمناقشة هذه الأفكار التي أهملها نقاد الأدب وأشار إلى بعضها عدد منهم ممن ينظر إلى العطاء الأدبي بمنظور إسلامي.

ولكن لما رأيت أن عددا أخر من النقاد لم يكتف بالنظرة العاجلة والإشارة السريعة وإنما صال وجال في هذه القضايا كالذي حرره الدكتور/ نجيب الكيلاني في كتابه – ((آفاق الأدب الإسلامي)) وكالذي كتبه الدكتور/ عبدالباسط بدر، وكالذي بسط القول فيه الدكتور عماد الدين خليل والدكتور محمد عادل الهاشمي وغيرهم.

لما رأيت أن هؤلاء النقاد المنصفين قد أجادوا وأفادوا في بسط هذه المسائل حول الأدب الإسلامي، آثرت أن يكون نصيبي في هذا الاتجاه من الدراسات النقدية لونا تطبيقيا يعنى بدراسة النصوص لطائفة من الخطب والقصص الإسلامية ونصوص الشعر في هذا المسار.

وما ذلك إلا لأن الدراسة المنهجية لهذا اللون من الأدب قد تجاوزت مرحلة المنهج إلى التطبيق، وأن شداة الأدب قد أصبحوا بحاجه إلى تلمس الخصائص الفنية واستجلاء معالم الإبداع في العطاء الأدبي وبخاصة ما كان من النصوص ذا نزعة إسلامية.

ولا أدعي أني قلت كل شيء عن بدائع الأدب الإسلامي لأن دراسة نص واحد من الخطب أو القصص أو الشعر يستدعى دراسة مستقلة تنهض بخصائص الإبداع في البيت تلو البيت من الشعر وفي الفكرة تلو الفكرة من الخطبة وفي الموقف تلو الموقف والمشهد تلو المشهد من القصة.

وحسبي في هذه الدراسة المتواضعة إنها استطاعت الكشف عن بعض خصائص النص.

والوقوف على مواطن الإبداع بقدر ما وسعته معرفتي المحدودة .

وأن هذه الدراسة استنارت بآراء عدد من النقاد الذين مارسوا الأدب الإسلامي عطاء ونقدا وأنها استطاعت الوقوف أمام آراء بعض النقاد ممن يصفون الأدب العربي في تراثه بالمرتبة الدون لخلوه من اللون القصصي.

والخلاصة أن هذا الأدب هو الدرب الذي يمكن أن يسير على جادته الأديب آمنا من الانزلاق والضياع والهلاك هو الجادة الصحيحة الواضحة التي يمكن أن يقوم على طريقها دراسات أدبيه نقدية من خلالها يبين الرشد للناس وأنه فيما قال الله تعالى وقال رسوله الكريم، ثم فيما تأسى به الأنبياء بقول الكلمة الطيبة التي تمكث في الأرض فتخصب وتنفع الناس أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين......

**الفهرس**

|  |  |
| --- | --- |
| الموضوع | الصفحة |
| مقدمة  تمهيد  الفصل الأول  مقياس الصنعة  من كلام العرب شعرا ونثرا  تاريخ الخطابة عند العرب  دوافع وأغراض الخطابة الجاهلية  الخصائص الفنية للخطب الجاهلية  خصائص الخطابة الإسلامية ونماذج منها  خطبة للإمام علي – خصائصها الفنية  خطبة لرسول الله - خصائصها الفنية  خطبة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه – خصائصها الفنية  خطبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه – خصائصها الفنية  كلام ابن خلدون على الخطابة الإسلامية  خطبة لعمر بن عبدالعزيز – خصائصها الفنية  خطبة لأبي العباس عبدالله بن هارون الرشيد – خصائصها الفنية  الفصل الثاني – القصة الإسلامية  المقاييس والقيم والتعبيرية للقصة  آراء القائلين بنفي القصة من الأدب العربي وتفنيد هذه الآراء  آراء المستشرقين وتفنيدها  نصوص من القصص النبوي (قصة المسئولية والجزاء – خصائصها الفنية)  نصوص من القصص النبوية (بني إسرائيل)  نصوص من القصص الإسلامية المعاصرة  قصة نابليون في الأزهر – خصائصها الفنية  قصة (أختاه أيتها الأمل) خصائصها الفنية  قصة "إصلاح" خصائصها الفنية  الفصل الثالث  الأدب من منظور إسلامي  موقف الإسلام من الشعر  مقومات الأدب الإسلامي  الإنسان من مقومات الأدب الإسلامي  موقف الإسلام من منهجية الشعر  من عيون الشعر قصائد لكعب بن مالك  مادة الشعر الإسلامي وأغراضه  نص من الشعر الإسلامي لكعب بن زهير – قصيدته (بانت سعاد)  نص من قصيدة (الشهيد خبيب)  نصوص للشاعر الإسلامي (يوسف العظم)  شعر الجهاد في الأدب الإسلامي – نص للشاعر أحمد محرم  شعر الجهاد في الحروب الصليبية  شعر الملاحم في الأدب الإسلامي  شعر المطولات (البردة للبوصيري)  همزية البوصيري  رائية البوصيري  نهج البردة  همزية شوقي  نصوص للشاعر أحمد محمد الخليفة  خاتمة |  |

**فهرس المصادر والمراجع**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| المصادر والمراجع | المؤلف | ملحوظات |
| 1. أختاه أيتها الأمل 2. الأدب الإسلامي وصلته بالحياة 3. الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام 4. أساس البلاغة 5. أسرار البلاغة 6. الأسلوب 7. إصلاح 8. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية 9. البيان العربي 10. البيان والتبيين 11. تاريخ الأدب العربي 12. تذوق الأدب طرقه ووسائله 13. التفكير فريضة إسلامية 14. الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي 15. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام 16. الخطابة 17. الخطابة في صدر الإسلام 18. الخطب والمواعظ 19. دائرة المعارف الإسلامية 20. ديوان البوصيري 21. ديوان حسان بن ثابت 22. ديوان الشافعي 23. ديوان كعب بن مالك 24. ديوان المعاني 25. ديوان النابغة الجعدي 26. زاد المعاد في هدي خير العباد 27. زهر الأدب وثمر الألباب 28. سر الفصاحة 29. سنن ابن ماجة 30. سنن الترمذي 31. شعر الجهاد في العصر الحديث 32. الشعر في موكب الدعوة 33. صحيح البخاري 34. صحيح مسلم 35. الصناعتين 36. الطراز 37. العقد الفريد 38. العناقيد الأربعة 39. عيون الأخبار 40. فن الخطابة وإعداد الخطيب 41. فن القصة 42. الفن ومذهبه 43. في رحاب الأقصى 44. فيض القدير 45. قصص العرب 46. القصص في أدب العرب 47. القصص في الحديث النبوي 48. القيم الخلقية في الخطابة العربي 49. لسان العرب 50. من آداب الدعوة الإسلامية 51. المثل السائر 52. المجازات النبوية 53. محاولات جديدة في النقد الإسلامي. 54. مختار الصحاح 55. مسند الإمام أحمد 56. مسند الدرامي 57. مقدمة بن خلدون 58. مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي 59. ملحمة أمجاد الرياض 60. ملحمة النصر 61. ملحمة نور الإسلام 62. مناهج من الدراسة الأدبية في الأدب العربي 63. من قضايا الأدب الإسلامي 64. منهج التربية الإسلامية 65. موسوعة العقاد الإسلامية 66. نابليون في الأزهر 67. نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد 68. نحو نظرية للأدب الإسلامي 69. نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية 70. نصوص نقدية لإعلام النقاد العرب 71. نقد الشعر 72. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز 73. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد 74. وحي القلم 75. وفيات الأعيان | أحمد بدوي  محمد الرابع الحسني الندوي  د. ذكريا عبدالرحمن صيام  محمود بن عمر الزمخشري  عبدالقاهر الجرجاني  أحمد الشايب  عزيزة الابراشي  الرافعي  - ب-  د/ بدوي طبانه  الجاحظ  - ت –  بروكلمان  د/ محمود ذهني  عباس العقاد  - ث –  - ج –  د/ زهدي صبري الخواجا  أبو زيد القرشي تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي  - ح –  - خ –  علي محفوظ  د/ طاهر درويش  محمد عبدالغني حسن  إعداد إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتناوي والدكتور عبدالحميد يونس  البوصيري/ جمع وتحقيق محمد سعيد كيلاني  تحقيق الدكتور وليد عرفات  محمد بن إدريس الشافعي تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم  أبو الهلال العسكري تصحيح الأستاذ كرنكو  - ذ –  - ر –  - ز –  ابن القيم الجوزية تحقيق وتخريج وتعليق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط  الحصري تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. شرح زكي مبارك  - س-  ابن سنان الخفاجي شرح وتصحيح عبدالمتعال الصعيدي  تأليف محمد ناصر الدين الألباني  الترمذي محمد بن عيسي  - ش –  جمع الدكتور عبدالقدوس أبو صالح والدكتور محمد رجب البيومي  د/ صادق عبدالحليم محمد  - ص –  الإمام البخاري  الإمام مسلم  أبو الهلال العسكري تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم  - ض –  - ط –  بحبي العلوي تصحيح سيد بن علي المرصفي  - ظ –  - ع –  لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان  أحمد محمد الخليفة  ابن قتيبة  - غ –  - ف –  علي محفوظ  د/ محمد يوسف نجم  د/ شوقي ضيف  يوسف العظم  المناوي  محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى وعلي البجاوي  محمود تيمور دار الفكر بيروت  د/ محمد بن حسن الزير  د/ سعيد حسين منصور  لابن منظور  عباس الجراري  لابن الأثير تحقيق د/ بدوي طبانه د/ أحمد الحوفي  الشريف الراضي شرح عبدالرءوف سعد  د/ عماد الدين خليل  الرازي  أحمد بن حنبل  عبدالله بن عبدالرحمن ابن الفضل بن بهرام  عبدالرحمن بن خلدون  د/ عبدالباسط بدر  د/ محمد العايد الخطراوي  عمر بهاء الدين الأميري  د/ محمد بن سعد الدبل  د/ شكري فيصل  د/ صالح أدام بيلو  محمد قطب  - ك –  - ل -  - ن –  د/ نجيب الكيلاني  د/ عبدالرحمن الباشا  د/ محمد أحمد حمدون  د/ عمر الساريسي  د/ محمد السعدي فرهود  قدامه بن جعفر تحقيق وتعليق د/ محمد عبدالمنعم خفاجي  للرازي تحقيق د/ بكري شيخ أمين  - هـ -  - و –  د/ أحمد بسام ساعي  مصطفى صادق الرافعي  لابن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس | مؤسسة الرسالة  مؤسسة الرسالة  دار النصر للطباعة الإسلامية – القاهرة  دار بيروت لطباعه والنشر  تصحيح محمد رشيد رضا  الطبعة السادسة مكتبة النهضة المصرية القاهرة  دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.. بيروت  دار الكتاب العربي بيروت الطبعة التاسعة 1393هـ  مكتبة الانجلو المصرية القاهرة الطبعة الرابعة 1388هـ  تحقيق عبدالسلام هارون  الطبعة الثانية دار المعارف  مكتبة الانجلو المصرية  دار الفكر بيروت  دار الناصر للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الأولى 1405هـ  مطابع جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية  المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الرابعة  دار الكتب العربي بيروت  دار المعارف مصر  مطابع الشعب القاهرة  طبع مصطفى البابي الحلبي  دار صادر بيروت  مكتبة المعارف الرياض  نشر مكتبة الأندلس بغداد  مكتبة المنار الإسلامية  الكويت  دار الجيل بيروت  مطبعة محمد علي صبيح  توزيع المكتب الإسلامي بيروت  الطبعة الأولى 1387هـ  مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية  مطابع النصر الحديثة الرياض الطبعة الثانية 1399هـ  نشر دار المعارف الرياض  نشر محمد فؤاد عبدالباقي الطبعة الأولى 1375هـ  المطبعة الحكومية وزارة الإعلام البحرين  نشر المؤسسة العربية العامة بمصر.  دار الاعتصام القاهرة  دار الثقافة بيروت  دار المعارف مصر الطبعة الخامسة  المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة 1400هـ  دار المعرفة بيروت  دار إحياء التراث العربي  بيروت  المطبعة السلفية مصر الطبعة الأولى  الطبعة الثانية 1399هـ  دار صادر بيروت  دار الثقافة الدار البيضاء  دار الرفاعي الرياض  مطبعة الحلبي مصر  مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى  دار الكتاب العربي بيروت  المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية  شركة الصباغة الفنية المتحدة مصر  دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الثالثة  دار المنارة للنشر السعودية – جدة  الطبعة الأولى 1394هـ  دار القرآن الكريم  دار المعارف الرياض  دار العلم للملايين ببيروت  دار المنارة للنشر السعودية – جدة  دار الشروق بيروت  نشر دار الكتب العربي بيروت  المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة  مطابع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية 1405هـ  دار الفنون للطباعة والنشر جدة  دار المنارة للنشر السعودية جدة  دار الطباعة المحمدية الأزهر الطبعة الثانية 1399هـ  مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الأولى 1399هـ  دار المنارة للنشر السعودية – جدة  دار الكتاب العربي بيروت  دار صادر بيروت |

**مطبوعات نادي المدينة المنورة**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عدد | اسم الكتاب | اسم المؤلف |
| 1  2  3  4  5  6  7  8  9  10  11  12  13  14  15  16  17  18  19  20  21  22  23  24  25  26  27  28  29  30  31  32  33  34  35  36  37  38  39  40  41  42  43  44  45  46  47  48  49  50  51  52  53  54  55  56  57  58  59  60  61  62  63  64  65  66  67 | ذكريات طفل وديع  الشعر الحديث في الحجاز  شعراء من أرض عبقر ج1  شعراء من أرض عبقر ج2  في ظلال السماء  على دروب الشمس  على ضفاف العقيق  همسات في أذن الليل  غناء الجرح  ترانيم العودة  الفيصليات  رعاية الشباب في الإسلام  جرح الإباء  أضواء على حقائق  بيت وشاعر  الحفل المسرحي  جداول وينابيع  الجناحان الخالدان  على طلال ارم  ثلاثة أعوام مع مسابقه حفظ القرآن الكريم بالمدينة المنورة  رسالة إلى ليلى  في رحاب الجهاد المقدس  بحث الشيخ محمد بن عبدالوهاب  في موكب الضباء  الفنون التعبيرية  أباريق النور  في غيابة الجب  المدينة المنورة في التاريخ  ذكريات طفل وديع ط2  رعاية الشباب في الإسلام ط2  حروف في الرماد  هموم عربية  المدينة المنورة  لمحات عن حياة الربيع  على ضفاف الذكريات  مبضع الجراح  صور وذكريات عن المدينة المنورة  قصص لا تنسى  تحفة اللبيب  مع المجاهدين في باكستان  المجموعة الشعرية الكاملة  مسيرة 8 أعوام لنادي المدينة الأدبي  طيبة وفنها الرفيع  أيسر التقاسيم ج1  أيسر التقاسيم ج1  أيسر التقاسيم ج1  أيسر التقاسيم ج1  الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية  شاعر الخليج  أدب ونقد  ردود ومناقشات  دعوة سليمان (عليه السلام)  حروف من دفتر الأشواق  دموع وكبرياء  في الفكر والأدب (دراسات وذكريات)  دراسات قرآنية (المجلد الأول)  الإخطبوط (قصة)  طيبة في عيون فنان تشكيلي  تاريخ معالم المدينة قديما وحديثا  تفاصيل في خارطة الطقس  وداعا أيها الحزن – رواية –  نصوص مختارة  المجموعة الشعرية الكاملة المجلد الأول  الولوج من ثقب إبرة  وقفات على الماء  المنظمة الدولية للشرطة الجنائية – الأنتربول – ودورها في مكافحة المخدرات  من بدائع الأدب الإسلامي | عبدالعزيز الربيع  عبدالرحيم أبوبكر  د. محمد العيد الخطراوي  د. محمد العيد الخطراوي  محمد هاشم رشيد  محمد هاشم رشيد  محمد هاشم رشيد  د. محمد العيد الخطراوي  د. محمد العيد الخطراوي  ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي  عبدالحميد ربيع  عبدالعزيز الربيع  أحمد فرح عقيلان  محمد المجذوب  خالد اليوسف  إعلامي عن النادي  عبدالرحمن رفه  محمد هاشم رشيد  محمد هاشم رشيد  دخيل الله الحيدري ومحمد وهبه الجبالي  أحمد فرح عقيلان  إبراهيم العياشي  مسلم الجهني  أبو زيد إبراهيم سيد  عبدالعزيز الربيع  محمد عادل سليمان  علي الفقي  عبدالسلام هاشم حافظ  عبدالعزيز الربيع  عبدالعزيز الربيع  محمد صالح البلهيشي  للأستاذ أبو عبدالرحمن الظاهري  للأستاذ محمد صالح البلهيشي  محمد صالح البلهيشي  للشاعر مجدي خاشقجي  للأستاذ إبراهيم العياشي  للأستاذ محمد عثمان  للشيخ محمد المجذوب  للشيخ محمد المجذوب  للشيخ محمد المجذوب  للشاعر عبدالسلام هاشم حافظ  محمد صالح البلهيشي  م. حاتم عمر طه  الشيخ أبو بكر الجزائري  الشيخ أبو بكر الجزائري  الشيخ أبو بكر الجزائري  الشيخ أبو بكر الجزائري  د. عبدالله الحامد  للأستاذ عبدالله أحمد الشباط  الشيخ محمد المجذوب  الشيخ محمد المجذوب  للأستاذ علي منسي عشكان  محمد العايد الخطراوي  للأستاذ حسن مصطفى صيفي  د. حسن فهد الهويمل  د. حسن فهد الهويمل  نادي المدينة المنورة الأدبي  الأستاذ ناجي محمد حسن عبدالقادر  للأستاذ فؤاد طه مغربل  السيد/ أحمد ياسين الحيارى  د. محمد العايد الخطراوي  الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج  الشيخ محمد المجذوب  الأستاذ محمد هاشم رشيد  الأستاذ علي عبدالفتاح السعيد  إبراهيم صعابي  النقيب محمد حسن زهير  د. محمد بن سعد الدبل |

1. () انظر هذه القضية وتفصيلاتها في: البيان والتبيين للجاحظ جـ1، والصناعتين لأبي هلال العسكري في باب النظم، وأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني شرح فكرة النظم، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والمثل السائر لابن الأثير. [↑](#footnote-ref-1)
2. () ديوان كعب بن مالك 222 طبعة بغداد. [↑](#footnote-ref-2)
3. () الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ص143 د/ زكريا عبدالرحمن صيام. [↑](#footnote-ref-3)
4. () زهر الآداب وثمر الألباب للحصري جـ3 ص828 تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد شرح زكي مبارك. [↑](#footnote-ref-4)
5. () المصدر السابق للحصري ص828. [↑](#footnote-ref-5)
6. () المصدر السابق للحصري ص829 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-6)
7. () الخطابة لعلي محفوظ ص18 ط الرابعة. [↑](#footnote-ref-7)
8. () المصدر السابق ص18. [↑](#footnote-ref-8)
9. () الخطب والمواص 52، حمد عبدالغص 63، ن ص 52، 53 دار المعارف مصر. [↑](#footnote-ref-9)
10. () الصناعتين لأبي هلال العسكري ص63، 66 تحقيق علي محمد الجاري وأبي الفضل إبراهيم. [↑](#footnote-ref-10)
11. () سورة الروم الآية 43. [↑](#footnote-ref-11)
12. () الطراز ليحيى بص 168. العلوي ص160 وما بعدها ج1 تصحيح سيد بن علي المرصفي. [↑](#footnote-ref-12)
13. () المصدر السابق ص168. [↑](#footnote-ref-13)
14. () المصدر السابق ص167. [↑](#footnote-ref-14)
15. () البيان والتبيين للجاحظ جـ2 ص53 وما بعدها تحقيق وشرح عبد المصر. هارون والعقد الفريد لابن عبد ربه جـ4 ص136 وما بعدها تحقيق محمد سعيد العربان. [↑](#footnote-ref-15)
16. () انظر وفيات الأعيان لابن خلكان جـ3 ص313 تحقيق الدكتور/ إحسان عباس – دار صادر/ بيروت. [↑](#footnote-ref-16)
17. () الفن ومذاهبه في النثر الفني د/ شوقي ضيف ص61 وما بعدها/ ط الخامسة/ دار المعارف/ مصر. [↑](#footnote-ref-17)
18. () الصناعتين لأبي هلال العسكري ص140. [↑](#footnote-ref-18)
19. (( نص الآية في سورة التوبة برقم 37 قول الله تعالى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)}. [↑](#footnote-ref-19)
20. () الخطبة في البيان والتبيين للجاحظ جـ2 ص31 وما بعدها، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه جـ4 ص57، 58 شرح وتصحيح أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري. [↑](#footnote-ref-20)
21. () زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ص182، 188، 191، تحقيق وتخريج وتعليق شعيب الأرنؤوط، جـ1/ مكتبة المار الإسلامية/ الكويت. [↑](#footnote-ref-21)
22. () الأسلوب لأحمد الشايب ص189 الطبعة السادسة 1966م/ مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة. [↑](#footnote-ref-22)
23. () المصدر السابق ص197. [↑](#footnote-ref-23)
24. () القيم الخلقية في الخطابة العربية ص73 د/ سعيد حسين منصور/ الطبعة الثانية 1399هـ. [↑](#footnote-ref-24)
25. () الخطابة في صدر الإسلام د/ طاهر درويش ص138، 215، 216. [↑](#footnote-ref-25)
26. () إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ص367، 384، 386. [↑](#footnote-ref-26)
27. () المجازات النبوية للشريف الرضي ص102، شرح طه عبدالرؤوف سعد/ مطبعة الحلي مصر 1391هـ. [↑](#footnote-ref-27)
28. () العقد الفريد لابن عبد ربه جـ1 ص5 تحقيق محمد سعيد العريان. [↑](#footnote-ref-28)
29. () الخطابة في صدر الإسلام للدكتور/ محمد طاهر درويش ص217 وموسوعة العقاد الإسلامية ص83 المجلد 2 نشر دار الكتاب العربي – بيروت. [↑](#footnote-ref-29)
30. () وحي القلم للرافعي ص6،؟ ، 10 جـ3 دار الكتاب العربي ببيروت. [↑](#footnote-ref-30)
31. () سورة آل عمران الآية 30. [↑](#footnote-ref-31)
32. () العقد الفريد ص128، 129 جـ4 لابن عبد ربه. تحقيق محمد سعيد العريان. [↑](#footnote-ref-32)
33. () الخطابة للشيخ علي محفوظ ص52 الطبعة الرابعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة. [↑](#footnote-ref-33)
34. () الخطب والمواعظ لمحمد عبدالغني حسن ص44. طبعة دار المعارف بمصر 1955م. [↑](#footnote-ref-34)
35. () البيان والتبيين للجاحظ جـ2 ص47. 46، 48 تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ط4. [↑](#footnote-ref-35)
36. () فن الخطابة وإعداد الخطيب للشيخ على محفوظ ص33 دار الاعتصام. [↑](#footnote-ref-36)
37. () سورة التوبة الأية 29. [↑](#footnote-ref-37)
38. () سورة الحشر الأية 7. [↑](#footnote-ref-38)
39. () سورة التوبة الأية 103. [↑](#footnote-ref-39)
40. () محاولات جديدة في النقد الإسلامي د/ عماد الدين خليل ص21، 22 ط الأولى مؤسسة الرسالة بيروت. [↑](#footnote-ref-40)
41. () فن الخطابة وإعداد الخطيب للشيخ/ على محفوظ ص24 دار الاعتصام. القاهرة. [↑](#footnote-ref-41)
42. () مقدمة ابن خلدون 359 دار ومكتبة الهلال. بيروت. [↑](#footnote-ref-42)
43. () عيون الأخبار لابن قتيبة ص246 جـ2 المؤسسة المصرية العامة. [↑](#footnote-ref-43)
44. () ديوان المعاني لأبي هلال العسكري جـ1 ص149 تصحيح الدكتور/ كرنكو/ مكتبة القدس/ القاهرة. [↑](#footnote-ref-44)
45. () دائرة المعارف الإسلامية جـ2 ص589 إعداد/ إبراهيم خورشيد/ أحمد الشنتاوى د/ عبدالحميد يونس. [↑](#footnote-ref-45)
46. () الأسلوب لأحمد الشايب ص164 بتصرف. [↑](#footnote-ref-46)
47. () الحديث في البخاري. [↑](#footnote-ref-47)
48. () الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد – الدكتور/ أحمد بسام ساعى ص45 دار المنار جدة. [↑](#footnote-ref-48)
49. () من أدب الدعوة الإسلامية/ عباس الجراري ص121 ط2 دار الثقافة/ الدار البيضاء. [↑](#footnote-ref-49)
50. \* الحديث في مسند الدارمي كتاب السير ص72 مسند الإمام أحمد 2/92، 106، 136. [↑](#footnote-ref-50)
51. \* الحديث في صحيح مسلم. [↑](#footnote-ref-51)
52. \* الحديث في سنن الترمذي كتاب القيامة 42 وفي سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة1. [↑](#footnote-ref-52)
53. () أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني ص9 طبعة/ محمد رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. [↑](#footnote-ref-53)
54. \*سورة الصافات الآيتان 117، 118. [↑](#footnote-ref-54)
55. () نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي ص143 تحقيق د/ بكري شيخ أمين. [↑](#footnote-ref-55)
56. () انظر ص9 من هذه الدراسة. [↑](#footnote-ref-56)
57. \* العلز بالتحريك الضجر والعلز – أيضا – شبه رعشة تأخذ المريض أو الحريض على شئ، والعلز أيضا – القلق والكرب عند الموت/ لسان العرب مادة لعز ص380. [↑](#footnote-ref-57)
58. () المهل بالتحريك أى اتاد وتقدم في الخير/ أساس البلاغة للزمخشري من مادة مهل. [↑](#footnote-ref-58)
59. () يمل بضم الياء وكسر الميم أى أملى الكتاب. والملى الزمان الطويل/ مختار الصحاح للرازي مادة ملل. [↑](#footnote-ref-59)
60. () سورة الكهف الأية 49. [↑](#footnote-ref-60)
61. () سورة الأنبياء الأية 47. [↑](#footnote-ref-61)
62. () سورة لقمان الأية 33. [↑](#footnote-ref-62)
63. (( سورة محمد الأية 36. [↑](#footnote-ref-63)
64. () عيون الأخبار لابن قتيبة ج2 ص255، 256. [↑](#footnote-ref-64)
65. () صيد الخاطر لابن الجوزي ص341 – دار الفكر مراجعة وتحقيق علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي. [↑](#footnote-ref-65)
66. () القيم الخلقية في الخطابة العربية ص61، 69/ سعيد حسيم منصر/ الطبعة الثانية. [↑](#footnote-ref-66)
67. () القصص في الحديث النبوي ص33 وما بعدها د/ محمد بن حسن الزير/ الطبعة الأولى. [↑](#footnote-ref-67)
68. () تاريخ الأدب العربي بروكلمان ص128 دار المعارف ط3. [↑](#footnote-ref-68)
69. () القصص في أدب العرب لمحمود تيور ص24، والقصص في الحديث النبوي الشريف د/ محمد بن حسن الزير ص33 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-69)
70. \* سورة فصلت الأية 42. [↑](#footnote-ref-70)
71. \* سورة النجم الأية 4. [↑](#footnote-ref-71)
72. () قصص العرب المجلد الثاني ص441 وما بعدها تأليف أبي الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولي وعلى البيجاوي/ دارإحياء التراث العربي/ بيروت. [↑](#footnote-ref-72)
73. () سورة يوسف الأية 3. [↑](#footnote-ref-73)
74. () تذوق الأدب طرقه ووسائله ص127. 134 وما بعدها د/ محمود ذهني مكتبة الأنجلو المصرية. [↑](#footnote-ref-74)
75. () الأدب الإسلامي وصلته بالحياة ص5، 6 لمحمد الرابع الحسني الندي/ مؤسسة الرسالة. [↑](#footnote-ref-75)
76. () صحيح البخاري جـ9 ص80 وما بعدها طبع ونشر دار المعارف 7 الرياض. [↑](#footnote-ref-76)
77. () فن القصة ص14، 15 د/ محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت. [↑](#footnote-ref-77)
78. () منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ص155، 172 دار الشروق بيروت. [↑](#footnote-ref-78)
79. () فن القصة لمحمد يوسف نجم ص63، 64. [↑](#footnote-ref-79)
80. () المصدر السابق لمحمد نجم ص73 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-80)
81. () القصص في الحديث النبوي ص135 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-81)
82. () مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ص207 د/ شكري فيصل، الطبعة الرابعة، 1978م. [↑](#footnote-ref-82)
83. () صحيح البخاري جـ4 ص328 وما بعدها، نشر دار المعارف، الرياض/ وصحيح مسلم جـ4 ص2275، 2277/ نشر محمد فؤاد عبدالباقي ط الأولى 1375هـ. [↑](#footnote-ref-83)
84. () القصص في الحديث النبوي ص77 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-84)
85. () انظر صفحة 97 وما بعدها من هذه الدراسة. [↑](#footnote-ref-85)
86. () القصص في الحديث النبوي ص406. [↑](#footnote-ref-86)
87. () القصص في الحديث النبوي ص399. [↑](#footnote-ref-87)
88. () المصدر السابق ص400. [↑](#footnote-ref-88)
89. () نابليون في الأزهر ص5 وما بعدها، د/ نجيب الكيلاني. [↑](#footnote-ref-89)
90. المصدر السابق ص8 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-90)
91. () المصدر السابق ص44 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-91)
92. () المصدر السابق ص47 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-92)
93. () فن القصة لمحمد يوسف نجم ص128 – 134 – 136 بتصرف. [↑](#footnote-ref-93)
94. () أختاه أيتها الأمل ص36 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-94)
95. () المصدر السابق ص37. [↑](#footnote-ref-95)
96. () المرجع السابع ص44 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-96)
97. () المرجع السابق ص47 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-97)
98. () إصلاح لعزيزة الأبراشي ص7. [↑](#footnote-ref-98)
99. () المرجع السابق ص11 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-99)
100. () قصة (إصلاح) لعزيزة الأبراشي ص321 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-100)
101. () الأسلوب لأحمد الشايب ص22. [↑](#footnote-ref-101)
102. التفكير فريضة إسلامية – عباس العقاد ص27. [↑](#footnote-ref-102)
103. سورة ص الآية 71. [↑](#footnote-ref-103)
104. سورة ص الآية 72. [↑](#footnote-ref-104)
105. سورة المزمل الآية 1، 2، 3، 4. [↑](#footnote-ref-105)
106. سورة الإسراء الآية 29. [↑](#footnote-ref-106)
107. سورة الفرقان الآية 67. [↑](#footnote-ref-107)
108. سورة الطلاق الآية 7. [↑](#footnote-ref-108)
109. سورة الفرقان الآية 52. [↑](#footnote-ref-109)
110. ديوان إسلاميات لمحمد الدبل – الطبعة الرابعة – مكتبة العبيكان - الرياض. [↑](#footnote-ref-110)
111. الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي للدكتور/ زهدي خواجة ص38. [↑](#footnote-ref-111)
112. نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد د/ عبدالرحمن الباشا ص4 طبع جامعة الإمام 1405. [↑](#footnote-ref-112)
113. () المصدر السابق ص6 - 7. [↑](#footnote-ref-113)
114. () الحديث في فيض القدير جـ3 ص343 للمناوي – دار المعرفة بيروت. [↑](#footnote-ref-114)
115. () سورة الأنفال الآية 60. [↑](#footnote-ref-115)
116. () أنظر ص197، 180 من هذه الدراسة. [↑](#footnote-ref-116)
117. () ديوان الإمام الشافعي ص51 تحقيق الدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجي. [↑](#footnote-ref-117)
118. () القصيدة متناثرة في عدد من المصادر الأدب ومنها (جمهرة أشعار الأدب في الجاهلية والإسلام جـ2 ص789 وما بعدها تحقيق الدكتور/ محمد على الهاشمي مطابع الجامعة. [↑](#footnote-ref-118)
119. () الشعر في موكب الدعوة 7 صادق لعبدالحليم محمد ص177، 118. [↑](#footnote-ref-119)
120. () المرجع السابق ص117. [↑](#footnote-ref-120)
121. () في رحاب الأقصى ديوان يوسف العظم ص8 و207 وما بعدها المكتب الإسلامي. [↑](#footnote-ref-121)
122. () شعر الجهاد في العصر الحديث ص50 وما بعدها جمع د/ عبدالقدوس أبو صالح والدكتور محمد رجب البيومي. [↑](#footnote-ref-122)
123. () نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية الدكتور عمر الساريسي ص24 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-123)
124. () ملحمة النصر/ لعمر بهاء الدين الأميري ص40 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-124)
125. () ملحمة النصر/ لعمر بهاء الدين الأميري ص45 وما بعدها/ دار القرآن الكريم. [↑](#footnote-ref-125)
126. () ملحمة أمجاد الرياض د/ محمد العيد الخطراوي ص55 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-126)
127. () ملحمة نور الإسلام للمؤلف ص7 و20 و21. [↑](#footnote-ref-127)
128. () ديوان البوصيري، ص238 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-128)
129. () المصدر السابق للبوصيري ص50 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-129)
130. () المصدر السابق للبوصيري ص135 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-130)
131. () الشوقيات لأحمد شوقي ص240 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-131)
132. () المصدر السابق لشوقي ص21 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-132)
133. () العناقيد الأربعة ديوان الشاعر أحمد محمد الخليقة ص7 المطبعة الحكومية لوزارة الإعلام البحرين. [↑](#footnote-ref-133)